بعيدا عن متناول الرجال

" مجموعة قصصية "

علياء عبد الصبور

إهداء

دائما وأبدا

إلى أبي وأمي وإخوتي وأخواتي وجنا وأحمد

وكل من أحب

وإليكم

مقدمة

جميع القصص الواردة هنا جاءت كتابتها بمحض الصدفة .. لم أتعمد كتابة أيا منها .. أحببت أن تحمل كل قصة شيء مني أو شيء من أحدكم .

أرى أن القص لا يهدف فقط للمتعة .. فنحن نقرأ لنستمتع ولنرتقي .. فأسأل الله أن يرزقني بر الحرف وأن يجعل كلماتي من القلب للقلب .

من قلبي لقلوبكم

علياء عبد الصبور

اللحم

كان يوما قاسيا.
أيقظوني في الصباح وزينوني .. زينة زادتني عمرا فوق عمري .
ألبسوني فستانا أبيض اللون واسعا ،لم أكن أراني فيه .

نظرت إلى نفسي في المرآة فلم أعرفني .. رأيت فتاة تكبرني عشرة أعوام أو يزيد ... فتاة صامتة ولكن رأسها مزدحم بالكلام .. دارت في رأسي تساؤلات عدة .. لماذا كل هذا ؟ .. لماذا الناس حولي فرحون ؟ ولماذا أنا خائفة ؟
تذكرت حوار أبي معي الشهر الماضي .. عندما أخبرني أن هناك من تقدم لخطبتي .. وأنه وافق .. وأنني سأصبح زوجة لرجل تتمناه جميع الفتيات حولنا .
لم أكترث كثيرا يومها لكلامه، فقد كان رأسي مشغولا بما هو أهم .. فقد أخبرتني أمي أنها اليوم ستطهو لنا لحما أحضره الزائر الذي أتانا اليوم .. والذي تفحصني بشكل غريب عندما رأني .
مشتاقة انا لمذاق اللحم الذي أعدته لنا أمي منذ ثلاثة أشهر .. طعمه كان شهي .. أحببته كثيرا وظل طعمه عالقا بفمي .. وها أنا على مشارف تذوقه مرة أخرى .
بعد أن انتهينا من طعامنا .. أخبرني أبي أن خطيبي هو من أحضر كل هذا لأجلي .. كان أبي فرحا .. وكنت متوجسة خيفة .. شعور بالخوف أتاني، لا أعلم ما مصدره ، ولكنه سيطر علي لدرجة جعلتني أشعر برغبة في قئ ما تناولته للتو .

جرت الأيام وأتى يوم عرسي .
وجدت نفسي أجلس بجانب نفس الرجل .. رجل يكبرني بحوالي ثلاثين عاما .. أنا في الخامسة عشر وهو في الخامسة والأربعين تقريبا .. بطنه كبير ،كأنه ابتلع خروفا للتو .. جسمه ضخم .. قامته طويلة لا أكاد أصل إلى منتصفها .. جلسنا هكذا لساعة أو يزيد .. ثم أتى رجل يرتدى جلبابا ، أطلق عليه الحاضرون مأذونا .. تمتم ببعض الكلمات .. أطلقت النسوة الزغاريد على إثرها .
بعد نصف ساعة ، أخذني من يدعى الآن زوجي إلى سيارته ومعي أمي .. تبعنا بعض أقاربنا إلى حيث أخذتنا السيارة .. بناية كبيرة دلفنا إليها.. وفي الطابق الثالث دلفنا لشقة كبيرة .. أخبرتني أمي أنها شقتي .. وهنا ودعتني أمي وتركتني خلفها لا أدري ماذا علي أن أفعل .. اكتفت بتقبيلي و بإخباري أن علي أن أُطيع زوجي وألا أفعل ما يغضبه .. ظلت عيني تحدق بها إلى أن أغلق زوجي الباب ثم ألتفت إلي .. وابتسامة مخيفة تعلو وجهه .

دنا مني وأحاطني بذراعه قائلا :

- مبروك يا عروسة.

انتفضت وارتعش جسدي .. فابتسم قائلا :

- لا تخجلي أنا الآن زوجك.

لم أرد .. فقط ابتعدت بجسدي عنه .

ضحك ضحكة عالية أرعبتني .. ثم نظر إلي قائلا :

- اذهبي لتبدلي ملابسك وعودي لنتناول الطعام .

دخلت الغرفة وجلست خائفة لا أدري ما سر خوفي هذا المبالغ فيه .. وبعد ما يقرب من ربع ساعة سمعته يطرق باب الغرفة .. كنت ما زلت جالسة لم أحرك ساكنا .. ناداني بصوته الأجش:
- هيا لنأكل .

رددت عليه :

- حاضر .

قمت وبدلت فستان عرسي بجلباب أنيق لا أدري من الذي أختاره .. خرجت من الغرفة .. وجدت ما لذ وطاب من الطعام على المائدة ،ووجدته جالسا في انتظاري .. لم أستطع أن أضع لقمة واحدة في فمي .. لا أدري هل كنت خجلة أم كنت خائفة أم كنت قد بدأت مرحلة زهدي في الحياة وفقد رغبتي في متعها .
أكل هو بنهم وبصوت مسموع ومقذذ .. ثم سألني :

-ألن تأكلي ؟

قلت :

- لست جائعة.

وبعد أن أنهى طعامه سحبني من يدي قائلا :

- هيا لنستريح .

قمت معه وأنا أتصبب عرقا .. ولكنني لم أكن أملك من أمري سوى طاعته .. ودلفنا إلى الغرفة.

استيقظت في اليوم التالي لأجده ممدا بجانبي وجسدي منهك وروحي ممزقة .
كنت قد نمت بعد أن شعرت بتحطمي تماما .. لا أدري ماذا حدث ولا لماذا حدث .. كل ما كنت أدريه أنني من الآن قد صرت جسدا بلا روح .

مرت ثلاثة أعوام وأنا في بيته .. صرت الآن في الثامنة عشر من عمري، ولكن شعوري شعور عجوز في الثمانين .
لا أدري كيف مضت الثلاثة أعوام الماضية .. ولكنها مرت.. كانت معظم أيامي تمر بنفس سيناريو اليوم الأول .. أنام باكية هربا من ألم نهاية اليوم معه .. واستيقظ باكية .

والذي زاد عن اليوم الأول .. هو قسوته في التعامل معي .. لم يكن يعاملني باللين .. كان يسبني كثيرا ويضربني إذا ما استدعي الأمر ضربي .. كنت ما زلت صغيرة .. ولا أستطع أن ألبي كل ما يطلبه بالطريقة التي يريدها .. لذا كان دائم الإهانة لي .
خلال الثلاث سنوات صرت أما .. لطفلة جميلة تشبهني كثيرا .. كنت أحاول أن أحتمي ببراءتها من قسوة الدنيا ومن سخطي على كل ما فيها .. ولكن رغم كل محاولاتي ، ظلت روحي محطمة وقلبي معذب.

ذهبت لأبي عدة مرات باكية .. أخبرته أنني أريد أن أعود إليهم ،وأنني لا أرغب في الاستمرار مع هذا الرجل .. شكوت له ولأمي غلظته معي وذله لي .. وكان ردهم واحدا في كل مرة :

- لديك زوج تتمناه الكثيرات غيرك .. حافظي علي زوجك ولبي رغباته .. كل الرجال هكذا .. يكفي أنه يعطيك كل ما تريدين وأن بيتك لا ينقصه شئ .. يكفي أنه تكفل بمصاريف إخوتك .. عودي إلى بيتك وقبلي يد زوجك وربي ابنتك .

كنت أعود في كل مرة حانقة على أبي وأمي وعندما أهدأ أعذرهما .. فقد ذاقا الحرمان كثيرا وزوجى كريم معهما .. يكفي أن بيتنا لم يعد يخلو من اللحم ، اللحم الذي لم أعد أشتهيه والذى كان يوما كل ما أشتهي .

كنت أذهب إليهما باكية وأعود لزوجي والدمع متحجرا في عيني .. ولا أجد أمامي سوى أن استسلم وأكمل يومي ،لأنام باكية هربا من ألم نهاية اليوم معه.

أتذكر أنه طلب مني ذات مساء ، أن أعد له طعاما وكنت متعبة جدا ،لا تستطع قدماي حملي من شدة الألم .. أخبرته أنني متعبة .. سبني بأبشع الالفاظ وقذفني بزجاجة كانت في يده .. أصابتني الزجاجة في رأسي وعندما رأى الدم يسيل مني قال بصوت مخيف :

- هذه ذكرى ،كي تقولي لا مرة أخري.

وذات صباح أيقظني بسحبي من شعري قائلا :

- ابنتك تبكي وأيقظتني من نومي وأنتِ ما زلت نائمة .. اخرجي بها من هنا وإلا قتلتكما.

لم استوعب ما حدث فقط أخذتها وخرجت وكلي خوف عليها .. لولاها لتمنيت أن ينفذ تهديده ويقتلني لأستريح .

مرت أيام كثيرة في ذل وإهانة وضرب ،وقد فاض الكيل .

قررت أن أهرب إلى حيث لا يستطع أبي ولا زوجي أن يجداني .. أخذت ابنتي وعزمت على الرحيل بلا عودة .

انتظرت حتى وقت خروج زوجي ، وأخذت ابنتي ومشيت .. تركت منزله خلفي .. لا أعلم أين ستأخذني قدماي .. وقفت في منتصف شارعنا أفكر إلى أين أذهب ولمن .. وجدت نفسي ضائعة .. لا أدري ماذا أفعل ولا ماذا سأفعل .

جبنت وعدت إلى منزلي باكية .. ولكنني اتخذت قرارا ولن يثنيني العالم كله لو اجتمع عن تنفيذه .. سأنفصل عن زوجي هذا .. وليكن ما يكن.. فكرت في أن أستعين على هذا بصديقة قديمة لي .. سأطلب من والدها مساعدتي .. فوالدها محام وخدوم .. سأنجو بما تبقى من حياتي .. الأمل ضعيف أن استطيع ولكنني سأحاول .. إن لم يكن من أجلي فمن أجل ابنتي .. فقد كبرت بما فيه الكفاية حتى لم يعد كل ما يشغلني هو أن أأكل لحما .. فما أبشع اللحم إن أنت بعت نفسك أو ولدك لمن سيشتريه .

نسيت أن أخبركم أنني لست الزوجة الأولى في حياة زوجي .. أنا الزوجة السادسة .. ولكني زوجته الوحيدة الآن.. فقد تزوجني بعد ثلاثة أشهر من انفصال زوجته الأخيرة عنه .. وكانت أول زوجاته قد توفيت بعد زواجه منها بستة أشهر .. أعتقد أنها ماتت قهرا من معاملته .. أما الأربعة الأخريات فقد انفصلن عنه .. اثنان بإرادته فقد كان قد زهد فيهن فطلقهن .. واثنان رغما عنه بمعاونة أهلهما .. فقد كان لهما سند .. الأهل سند مهم في حياة الفتاة .. مهما حاولنا إنكار ذلك لنبدو مستقلات فإنها تظل الحقيقة .. فتاة بلا أهل يساندونها ضعيفة مهما بدت للناس

قوية ... وقد كنت بلا سند رغم وجود أهل .
حاولت أن أنتقي وقتا مناسبا كي أتحدث إلى زوجي علني أستطيع الحصول على حريتي دون اللجوء إلى المحاكم ودون فضائح .. ولكنني جبنت .. لذا عزمت على التواصل مع صديقتي وطلب مساعدة والدها .

انتظرت حتى خرج ذاهبا لعمله واتصلت بها .. وكنت لحسن حظي ما زلت أحتفظ برقمها .
رحبت بي كثيرا عند اتصالي بها وكأنني لم انقطع عنها منذ سنوات .. قصصت عليها ما مر بي خلال الثلاث سنوات الماضية .. أخبرتها عن كل ما أعانيه .. شكوت لها كأني أشتكي لأم حنون أو لأخت شقيقة .. جاءني صوتها باكيا آسفا متعاطفا .. أخبرتني أنها ستخبر والدها بكل ما أخبرتها به وأنه بالتأكيد سيجد لي حلا للخلاص مما أنا فيه .

في اليوم التالي اتصلت بي وأخبرتني أن والدها يرغب في محادثتي .. بعد أن رحب بي أخذ يسألني بعض الأسئلة ثم طلب مني عنوان منزل أبي.. أخبرني أنه سيذهب لمقابلته ليتحدث معه بشأني .. أعطيته العنوان وكلي أمل أن يصل معه لحل يريحني .. ودعوت الله أن ينقذني مما أنا فيه.

في اليوم التالي ذهب لمقابلة أبي.. عرفه بنفسه وتحدث معه بشأني .. وجد أبي على علم بكل ما يحدث لي .. فأخذ يقنعه بأن انفصالي عن زوجي سيكون في صالحي، فأنا ما زلت صغيرة وما يحدث قد يجعلني أفقد صوابي وألجأ لأفعال غير سليمة ،كأن أنهي حياتي أو أضر بطفلتي أو نحو ذلك .. ولأول مرة تدب الشفقة في قلب أبي نحوي .

طمأنه أنه سيجد لي عملا بعد طلاقي أستطيع أن أنفق على نفسي منه .. وأخبره كذلك أنه سيجد له هو أيضا عملا بأجر جيد وثابت شهريا .. فقد كنت اضطررت لأخباره أن من أهم أسباب تمسك أبي باستمراري في الزواج خوفه من أن أعود مسئولة منه أنا وابنتي وكذلك لأن زوجي يساعدهم ماديا .
اطمأن أبي ووافق على فكرة الانفصال رغم حزنه .
وبعد محاولات عديدة من أبي لإقناع زوجي بأن يطلقني، باءت كلها بالفشل .. لم أجد أمامي سوى أن أرفع الأمر للقضاء بمعرفة والد صديقتي .. والذي أقام لي الدعوى دون أن يتقاضى مليما واحدا .

كان يوم الحكم في الدعوى بمثابة العيد بالنسبة لي .. طلقني القاضي للضرر .. منحني حريتي التي سُلبت مني دون إرادتي.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من السعادة عندما سمعت الحكم ..سعدت كما لم أسعد منذ أن ولدتني أمي .. وددت يومها لو قبلت القاضي وقبلت والد صديقتي وقبلت كل من حولي ،ولكنني اكتفيت بتقبيل ابنتي وبحمد الله حمدا كثيرا طيبا يليق بجلال وجهه وبكرمه .

منذ اليوم أنا حرة .. منذ اليوم أنا فتاة جديدة ستحيا وتسعد .. كان ابتلاء قاسيا ولكنه قد مر .. رحل بلا عودة .
منذ اللحظة سأقف على قدمي من جديد .. سأبدأ من جديد كأن ما مر بي لم يمر.. سأعمل واجتهد لأجل ابنتي .. حتى لا أضطر يوما أن أبيعها لمن سيشتري اللحم .

الندم

أكان يجدر بي وأنا الكبيرة العاقلة أن أضع نفسي في موقف مثل هذا؟ .. أن أهين نفسي لمجرد أن أحتفظ به ؟.. أكان يجدر بي وأنا المعتزة بنفسها أن أتنازل عن جزء من كرامتي فقط ليبقى؟.. أن أتألم وأتسبب في أذى نفسي يصيبني ليرضى عني؟ .. أكان يجدر بي وأنا العفيفة أن أرضخ لأوامره لأُعجبه؟ .. وأن أقدم له قلبي على طبق من ذهب ، رغم تمزيقه له ،فقط ليحبني؟ ..

ماذا فعلت بنفسي ؟.. وماذا جنيت مما فعلت ؟.. هل أحبني ؟ .. هل رضي عني ؟ .. وهل بقي أو احتفظت به ؟

أم أن كل ما جنيته هو أن أحدهم ترك ندبات بقلبي قد تؤثر عليّ ما بقي من حياتي ؟

أصبحت أخشى الرجال بسببه .. فقدت الثقة في قراراتي .. أصبحت قناعاتي مهتزة ..وأصبح جزء من روحي ممزق .

هل ألوم عليه لأنه لم يستطع أن يحبني أو لم يحاول ؟

أم ألوم على نفسي لأنني من فعلت هذا بنفسي ؟

هكذا راسلتني وسألتني فأجبت :

أيا صغيرتي هوني على نفسك .. ما حدث قد حدث .. فلا تبكِ على اللبن المسكوب.

كلنا معرضون لتجربة كتلك، مع اختلاف التفاصيل .. هذه هي الحياة .. نُخطئ فنتعلم .. جُبلنا على ذلك نحن البشر.

الأهم من أن تُجيبي على تساؤل على من ألوم، أن تهدأي وتستوعبي الدرس .. سامحي نفسك واعترفي أن جزء كبير من الخطأ كان خطوك .. فقد كان من الأجدر بك أن تنأي بقلبك عن تلك المهاترات .

أعلم أننا جميعا في حاجة لأن نحب .. لأن نصبح قرة عين أحدهم .. لأن نجد من يهتم بنا ويُشعرنا بأهميتنا عنده .. كلنا بحاجة لمن يحتضن أيدينا ويُطمئننا ويبقى معنا .. كلنا بحاجة لرفيق درب نُمارس معه كل احتياجاتنا العاطفية ، نرتمي بين ذراعيه فنشعر بالدفء .. بحاجة لمن يُخبرنا بأفعاله قبل أقواله أنه لنا وأننا ملكه .. ولكن علينا أن ننتظر وننتقي من يستحق أن

نشعر معه بتلك المشاعر .. شخص يتمنانا كما نتمناه .. ينتظرنا كما ننتظره .. يرى فينا ما نراه فيه .. يشتاق لنا كما نشتاق له .. يُريدنا أكثر مما نريده .

قدر الله وما شاء فعل .

لا تجلدي ذاتك .. وتعاملي مع ما حدث على أنه تجربة تعلمتي منها ألا تسمحي لأحد أن ينتهك مشاعرك ولا أن يتسبب في لومك لذاتك .. استغفري الله على تهاونك في حق نفسك .. واعزمي أن القادم سيكون مختلف.. لن أقترب من شخص سوى عندما يكون اقترابي منه في النور على مرأى من الجميع وأولهم أهلي .. لن أسمح لعقلي وقلبي أن يفكر سوى فيمن يُصارحني أنه يريدني في حلال الله ، بخطوات جدية تبدأ من البيت أو على الأقل بمعرفة البيت .. لا تركضي خلف قلبك دون تقديم عقلك .. فكلما أعملتي عقلك في البداية .. كلما جنبك ذلك آلام قد تتعرضين لها إذا ما قدمتي قلبك .

أيا صغيرتي قلبك جوهرة ،احفظيها لمن يستحقها .. واستعيني بالله .

عليك بالدعاء اللهم لا تعلق قلبي بمن ليس لي .

أفرغي طاقتك في أشياء مفيدة إلي أن يرزقك الله بزوج صالح تعيشين معه كل المشاعر التي تمنيتيها .. ولا تنسي أن الطيبين للطيبات .. فكوني طيبة ليرزقك الله بذلك الطيب.

خذلان

حكت لي بوجع أخترق قلبي قبل قلبها .. صوتها كان متهدج وعيناها دامعة كما لو كان ما حدث قد حدث للتو .
خمس سنوات مرت ومازال صدى ما حدث يؤلمها كما لو كان ما زال يحدث .

كيف يظل ماضينا جرح لا يندمل ؟
وكيف لشخص أن يقتل آخر دون رحمة ؟
ولماذا يقتل أحدنا الآخر دون أن يرفع رأسه مرة واحدة إلى السماء ليتذكر أن من يستوى على عرشه فوق سبع سماوات لن يغفر له قتل نفس بغير حق وإن كان قتلا معنويا ؟

سأبدأ من حيث انتهت :
_ لن أغفر له ما فعل بي .
هكذا أنهت حديثها الممتزج بدموع يبدو أنها لم تجف منذ أن سالت لأول مرة لأجله .
كان زميلها في الجامعة .. هي تلك الفتاة الريفية الأصل .. الصعيدية النشأة .
ولدت وعاشت بالقاهرة ولكنها تربت تربية صعيدية بحتة .. فوالدها صعيدي الجذور .. متمسك بتقاليد وعادت الصعيد المحافظة الجافة _ غير مسموح لها بالتأخير بعد السابعة مساءا .. غير مسموح لها بالضحك أو حتى الابتسام في الشارع .. غير مسموح لها بارتداء الملابس المواكبة للموضة .. والأهم أنه غير مسموح لها بالحديث مع أي رجل أجنبي .. حتى وإن كان هذا الرجل زميل _ قواعد وضعت لها وسارت هي عليها دون نقاش ودون تذمر .. فبالنسبة لها هذا هو الوضع الطبيعي للأمور.
إلى أن ظهر هو وتبدلت هي.

كعادتها بعد انتهاء المحاضرات أخذت تلملم أغراضها تستعد للعودة إلى بيتها .. كانت في منتهى الانهاك .. فمحاضرات اليوم كانت طويلة نظرا لاقتراب انتهاء العام الدراسي _ الفرقة الثالثة بكلية التجارة _ تلك الكلية التي التحقت بها دون إرادة منها .. فهي الكلية التي أهلها

لها مجموعها بالثانوية العامة .. لم تمتعض عند التحاقها بتلك الكلية رغم أنها لم تكن ضمن قائمة أحلامها بالمرة .. فقد اعتادت من الدنيا أن تلقي بها إلى طرق لم تتمناها يوما .. واعتادت أن ترضى .
اقترب منها وهي تهم بالمغادرة .. ألقى عليها التحية واستأذنها في دفتر محاضرات مادة المحاسبة .. شاب طويل القامة .. تميل بشرته للسمار .. أقرب للوسامة.

ارتبكت وأخبرته أنه ليس معها الآن .. همت بالانصراف .. فاستأذنها أن تحضره له في الغد إن كانت لا تمانع .. لم تدر ما يجب عليها قوله .. فأجابت أن إن شاء الله .. وأسرعت في الانصراف .

في المساء هاتفت صديقة لها .. حكت لها ما حدث .. ضحكت صديقتها بصوت عال .. فهي دائما تتعجب منها .. ودائما ما تسألها " كيف تتمسك بتلك العقلية " .. دائما ما تختلفان بخصوص أفكارها عن التعامل مع الجنس الآخر .. فصديقتها ترى أن التعامل بحدود وفي نطاق الزمالة مفروض عليهن طالما ارتضين أن يخرجن من بيوتهن .. أما هي فترى أن التعامل ممنوع منعا باتا كما رباها والدها .. وبعد نقاش طويل نصحتها صديقتها بألا تعطي للأمور أكثر من حجمها .. وأن تتخطى تلك الأفكار القديمة .
أنهت المكالمة وطرق تساؤل وحيد رأسها بقوة :
" لماذا اختارت صديقتها تلك بالذات لتقص عليها ما حدث وهي تعرف رأيها من البداية " .
فكانت الإجابة الصادقة:
" لأنها أرادت أن تستمع لمن يخبرها أن عليها اعطائه دفتر المحاضرات " .
وهذا ما حدث بالفعل في اليوم التالي .

بمجرد أن دخلت قاعة المحاضرات وجلست .. تقدم نحوها وبابتسامة ودودة حياها وسألها عن حالها فأجابت بخجل أن الحمد لله .. أخبرته دون أن يسأل أنها أحضرت له دفتر المحاضرات .. شكرها ووعدها أن يعيده لها في اليوم التالي بعد تصويره .
ذهب ليلتحق بأصدقائه .. أما هي فأخذت دقات قلبها تتصاعد .. لم تنتبه لكلمة واحدة في المحاضرة .. كانت تفكر فقط في ذلك الجالس على بعد خطوات منها وأمامه دفترها .
في الأيام التالية حاول أن يقترب منها .. لعل خجلها المبالغ فيه واختلافها أثار فضوله .. أو لعله أحب شيء في روحها .. ولعله لمس فيها جمالا أراد أن يحظى هو به .
أيا كان السبب .. فقد حاول أن يقترب .. وبعد صد منها .. وتصميم منه .. اقترب .. لم يكتفِ بالاقتراب . لقد اخترق قلبها .

انتهى العام الدراسي .. لم يستطع التواصل معها طيلة فترة العطلة ، لأنها لم توافق على إعطائه رقم هاتفها .. فقد كانت بحاجة لأن تعود الى ما تربت عليه .. فاقترابها منه جعلها تشعر بالذنب تجاه والدها وتجاه ربها .
هي تعلم أنها لم تقترب عن قناعة .. اقتربت عن ضعف .. ضعف بشري جعلها تحب نفسها

بجواره .. ضعف أنساها أن تحتاط لقلبها .

استُأنفت الدراسة واستأنف هو الاقتراب .. صرح لها بمشاعره تجاهها .. وأنه يريد أن يتقدم لخطبتها بمجرد التخرج .
كادت تطير فرحا .. تخيلت نفسها في بيته وبين ذراعيه .. تخيلت نفسها حلاله .
أعطته رقم هاتفها .. فقد باتت لا تحتمل أن تمر أيام الإجازات دون الاطمئنان عليه .. أصبح يوميا معها إما في الجامعة .. وإما عبر الهاتف .. أصبح يتغلغل داخلها .

مر العام الدراسي وتخرجا .. بدأت تطالبه الوفاء بوعده بالتقدم لخطبتها .. أخبرها أنه سيفعل بمجرد أن يجد وظيفة .. كان صادقا فهو لن يستطع أداء التزامات الخطبة والزواج دون وجود عمل .. ولن يستطع التقدم لأي وظيفة سوى بعد أن يعرف موقفه من الخدمة العسكرية ..
عرف من مصدر موثوق أن دفعته ستحصل على إعفاء من أداء الخدمة العسكرية فطمأنها أن انتظارها لن يطول .. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .. فقد كان من بين المجموعة التي لم تحصل على إعفاء .

طلبت منه أن يتقدم لخطبتها قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية لأنها تريد أن تصبح علاقتهما في النور .. أكدت له أنها لا تريد منه سوى خاتم عليه اسمه .. فأكد مجددا أنه لن يُقبل على تلك الخطوة سوى بعد أن يلتحق بعمل .. استعطفته، فقد بدأ شعورها بالذنب تجاه أهلها يزداد .. هي لا تريد أن تخون ثقة أهلها فيها أكثر من ذلك .. ولكنه صمم ..فلم يكن منها سوى أن انصاعت لرأيه مجبرة .

التحقت بعمل في إحدى الحضانات حتى تقتل الوقت في غيابه ..كانت تحصي أيام غيابه وتحصي الأيام المتبقية له في الخدمة .

مرت الأيام رتيبة وبطيئة ولكنها في النهاية انتهت .

كانت سعيدة يوم أن أنهى تلك المهمة .. اتصلت به .. بثته أشواقها .. حدثته عن حالها في غيابه وعن لهفتها لرؤياه.. فلم تجد منه سوى مشاعر متبادلة .. كان فاتر المشاعر .. لا يحمل صوته أشواق ولا لهفة .. فقد اعتاد غيابها فترة تجنيده .
شيئا فشيء بدأ يعود كما الماضي .. عاد مهتما ومشتاقا .. وبدأت تطالبه من جديد أن يتقدم لخطبتها .. ووعدها أنه سيفعل في أقرب وقت .

أتت اللحظة التي انتظرتها .. فقد التحق بوظيفة مناسبة ستمكنه من تحقيق أمنيتها .
كانت سعادتها بتلك الوظيفة تفوق سعادته بها .. لم تكن تعلم أن سبب سعادتها اليوم سيكون سبب شقاءها .
بدأت تطالبه من جديد بالتقدم لخطبتها .. كان يراوغها .. متعللا مرة بأن الأمور لم تستقر بعد وأنه لم يتم تثبيته في الوظيفة .. ومرة بأنه لم يدخر ثمن الشبكة .. ومرة بأنه لن يستطع اخذ خطوات جديدة في حياته هذه الفترة بسبب تركيزه في إثبات ذاته في العمل .
كلها حجج .. كانت الحقيقة أنه لم يعد واثقا من كونه يريدها .. فقد قابل أخرى في عمله يرى

أنها قد تكون مناسبة أكثر منها .. أخرى بدأت مشاعره تتحرك تجاهها .. ولأنه لم يكن قد حسم أمر أي منهما .. فقد أمسك العصا من المنتصف .. فلم يترك هذه ولم يعترف لتلك .

اتصلت به ذات مساء وأخبرته أن ابن عمها تقدم لخطبتها .. وأن أباها يرى أنه مناسب .. خشي أن تضيع منه فيندم .. فأكد لها أنه سيتقدم لخطبتها في الأسبوع القادم .. كادت تطير فرحا . رفضت ابن عمها معللة ذلك بأنها لا ترى فيه سوى أخ ولا تتخيل نفسها زوجته .

مر أسبوع فشهر وهو يماطل .. حاولت إقناعه بالتقدم لها .. وبعد أن تأكدت من فشلها في إقناعه .. قررت أن تتخطاه .. طلبت منه أن يبتعد عنها وألا يتصل بها مرة أخرى وقد فعل.
شهران مرا في ألم ووجع وقهر إلى أن غلبها شوقها إليه .. فقررت أن تحاول من جديد .. اتصلت به مرتين فلم يُجب .. وبعد يومين أعادت الاتصال فأجاب .
عاتبته على فترة غيابه .. أخبرته أنه كان عليه أن يرفض طلبها في الابتعاد عنها .. وكانت المفاجأة التي قتلتها .. أخبرها ببساطة أنه خطب زميلة له في العمل .. وطلب منها أن تسامحه فهو لم يقصد ايذاءها ولكنه كان صغيرا حينما وعدها بوعود لم يكن يعلم أنها سابقة لأوانها .. لم تعد تسمع ما يقول.. مرت سنواتها معه أمام عينيها في لحظة .. ولم تجد كلمات تعبر عن شعورها فلم تُجب .
أغلقت الخط ولم تبك .. ولأنها لم تبك يومها .. ظلت تحكي ما حدث كلما حكته وكأنه قد حدث للتو.

لا تحزن

ذات صباح استيقظت من النوم وأنا أشعر بثقل في عيني .. نظرت في المرآة لأجد عيني شبه جاحظة .

هالني المنظر .. كان شكلي صعب .. ما الذي حدث .. وما الذي أصابني فجأة .. تغير شكلي تماما .. بالطبع إلى الأسوأ .. أصبحت أخرى لا تُشبهني .. لمجرد أن شكل عيني تغير .

ست ساعات مرت منذ أخر مرة نظرت فيها إلى وجهي في المرآة .. كما يُقال بين عشية وضحاها .. وبدون أي مقدمات .. تغير وجهي لوجه آخر .

قد لا أكون جميلة بمقاييس الجمال .. ولكنني أيضا لست بتلك البشاعة .

خفت .

استغفرت الله كثيرا ليرفع عني الأذى وما أصابني .. وأخذت أتسأل ما الذي حدث؟

تذكرت أنني بالأمس نمت حزينة .. حزينة جدا .. وكعادتي .. تظاهرت أنني بحالة جيدة .

من شدة حزني ذلك اليوم ولشدة حرصي على إخفاء ذلك الحزن .. حبست دموعي .. ابتسمت في وجه الجميع .. ومثلت بجدارة أنني على مايرام .. نمت وداخلي كلمات كانت في حاجة للخروج .. ودموع كان لابد لها أن تسقط .. نمت حزينة لاستيقظ على هذا المشهد .. عيني جاحظة .. وشكلي مختلف كل الاختلاف عني .. رأيت في المرآة وجها آخر .. رغم أن كل ما تغير هو جحوظ في العين .

لحسن حظي كانت غرفتي فارغة .. والجميع بالخارج .. لم يكن في المنزل يومها سواي وأمي .. وكانت لا تزال أمي نائمة .

توضأت وصليت وشكوت بثي وحزني إلى الله .. بكيت .. بكيت كثيرا .. بكيت كما لم أبكِ من قبل .. سالت دموعي نهرا جارفا .. بللت وجهي وملابسي وموضع سجودي .. اختنق صوتي بالكلمات فلم أعد قادرة على النطق .. شهقات تلو شهقات .. ضيق في التنفس كاد يقتلني .. وألم بالصدر بل آلام في سائر جسدي .

يومها بكيت على ما حدث بالأمس وأحزنني .. وبكيت أكثر على شكلي الذي تبدل بين عشية وضحاها .

لم أكن أعلم أن حزن الأمس يمكن أن يتسبب في أن أصبح في دقائق أو ساعات بوجه آخر .. وجه أصبح كل ما أخشاه أن يتغير وجهي إليه إلى الأبد .

مرت ساعات ثقيلة على نفسي .. حتى أزال الله همي .. عادت عيني لطبيعتها، وعاد وجهي كما كان جميلا حتى وإن لم يكن بمقاييس الجمال جميلا .

من يومها علمت لماذا استعاذ رسولنا الكريم من الهم والحزن .. ولماذا يجب علينا المواظبة على هذا الذكر .. فحزنك قد ينتهي بك لأن تصبح بين عشية وضحاها بوجه غير الوجه وروح غير الروح وقد تصل شدته إلى حد الموت .

فاللهم إني أستعيذ بك من الهم والحزن .

حفل زفاف

تزينت وارتديت أحلى ثيابي .. رافقت صديقتي المقربة .. ذهبنا إلى حيث أقيم الحفل .. حفل زفافك.

ذهبت قبل حضورك ..ابتسمت .. صافحت كل من أعرف هناك .. انتظرت مجيئك بفارغ الصبر .. إلى أن جئت .

جئت رائع الطلة .. بهي الصورة .. محتضن يد عروسك .

صافحتك عند جلوسك في المقعد المخصص للعروسين .. احتضنت عروسك وهنأتها .. تهنئة تعمدت أن تبدو حارة .. تمنيت لها حياة سعيدة في أذنها .. تابعت رقصة ال " سلو " التي جمعت بينكما .. تحلقت الدائرة التي أحاطت بكما من المدعوين .. رغم أني نادرا ما أتحلق تلك الدائرة في أي عرس .. فدائما ما كنت أتابعها من بعيد خجلا .. ولكن اليوم كان علي أن أرى كل شئ من قريب .. كان علي أن أدنو أكثر من المعتاد لأنك تعني لي أكثر من المعتاد.

شاهدت فرحتك بعروسك .. وتلك الوشوشة التي كانت بينكما والتي لم استمع منها شيئا .. تمنيت لو اخترقت القواعد ودنوت منكما أكثر لاستمع .. صفقت بكل ما أوتيت من قوة عند انتهائكما من رقصتكما .. واحتفظت بابتسامتي الواسعة خصوصا عندما جاءت عيني بعينك .. ابتسمت أنت الآخر لي .. ابتسامة رائقة تحمل بين طياتها رسالة واحدة .. أنا سعيد .

لم يفارق وجهك عيني طوال الحفل .. ولم تفتني التفاته منك .. بدوت يومها سعيدة وفي أبهى حالاتي ونجحت في أن أبدو كذلك.. حتى عندما سألتني صديقتي المقربة :

-مالي أراك سعيدة اليوم كما لم أراك من قبل.

أجبتها :

- يبدو أنه يحبها .. حبه لها أضفى السعادة على روحي .. فقليلا ما أرى حب كالبادي في عينيه لها .

تابعت كل فقرات الحفل ولكني لم أستمع لفقرة منها رغم المتابعة .. فقد كان تفكيري كله منصب عليك .. كان ذهني مشغول بك .

تخيلتني مكان العروس عدة مرات .. ولكن شئ ما داخلي أبى أن يتركني أصدق تلك الخيالات فكان يصفعني كلما ثارت تلك الخيالات في ذهني .. ولكنني نجحت في الاحتفاظ بتلك الابتسامة .

لم أغادر العرس إلا عندما احتضنت يد عروسك وغادرت أنت .. رغم إلحاح صديقتي أنه يجب علينا المغادرة لأن الوقت قد تأخر .. إلا أنني أبيت أن أترك قاعة عرسك وأنت فيها ولم تغادرها بعد .

لم تتح لي الظروف فرصة توديعك قبل رحيلك .. فقد أبى الزحام أن يتركني أضع يدي في يدك للمرة الأخيرة قبل أن تصبح ملك لأخرى .. ولم تهتم أنت أن تودعني .. فأنت لا تعلم أني أحبك . حتى صديقتي المقربة لم تكن تعلم أنني أتيت لأعاقب قلبي على محبته لك .. أتيت لأراه ينزف أمامي بلا رحمة وبلا هوادة حتى يستطيع أن يتخطاك ويقتنع أنك بالفعل أصبحت ملك لأخرى .. وأنه لم يكن يوما موضع اهتمامك .

أتيت لأعاقب قلبي وأشفيه .. ولم أكن أعلم أنني سأعود معتلة الجسد والقلب والروح بعد جلدي لذاتي .. لم أكن أعلم أنني لم أجني من قسوتي تلك على نفسي سوى أن ظل طيفك عالقا في رأسي وأنت في منتهى السعادة بامرأة أخرى .. امرأة غيري .. فليتني ما حضرت عرسك وليتني ما قسوت على نفسي ولما عاقبت قلب لم يرتكب ذنبا سوى أنه أحبك .

صفعة

كنت أعتقد أننا في سن الستين لن نتذكر شيئا من أيام الطفولة .. فنحن نودع مرحلة الطفولة في رؤوسنا بالكثير في مرحلة الشباب .. أما أن تظل ذكريات الطفولة عالقة برؤوسنا بعد أن صرنا على مشارف الشيخوخة فهذا ما لم أكن أتوقعه .

رغم كوني في الستين من عمري إلا أنني أرى مشاهد من طفولتي وكأنها تمر بي الآن .. أشعر في بعضها نفس المشاعر التي اخترقتني وقتها .. مشاهد حُفرت في رأسي ولا تريد أن تغادرني رغم طردي لها كثيرا .. خصوصا المشاهد المؤلمة والتي ما أكثرها في طفولتي .

الآن أنا لست في الستين .. أنا الآن في السابعة .

يدخل أبي من باب المنزل بعد أن عاد من عمله للتو .. أقف مفزوعة عند رؤيته .. أقترب منه .. أقبل يده ، تلك اليد التي لم ولن أتذكر منها سوى الصفعات .. صفعة لأنني لم أنتبه وأنا أحمل طبق الطعام فسقط مني دون قصد .. وصفعة لأن أخي الذي يصغرني بعام ضربني فضربته وكان المفترض ألا أفعل لأنني فتاة وهو ذكر .. وصفعة لأنه طلب مني كوب ماء فنسيت أن أحضره .. وعلى بعد سنتيمترات من تلك الصفعة كانت صفعة أخرى لأنني تشاغلت عندما عاد من العمل ذات مرة ولم أقف لأقبل تلك اليد التي كانت دائما تصفعني .

صفعات ، صفعات ، ما أقساها من صفعات .

لا أعلم لماذا أراني دائما في سن السابعة بالذات .. يبدو أن أكثر صفعاتي كانت في تلك السن لذا فدائما ما أعود له مرغمة .

صفعات جعلتني أخشى اقتراب أبي مني .. بل أخشى رؤيته .

بعض الأوقات كان يحاول أن يقوم بدور الأب .. فيربت على كتفي تربيته لا أشعر فيها سوى بصفعة قادمة .. أو يحتضنني لأجد جسدي ينتفض بين ذراعيه .. أحاول جاهدة أن أسيطر على انتفاضة جسدي حتى لا يلحظها فيصفعني ، فأنجح مرة وأفشل مرات .. ولأن احتضانه لي كان دائما خالي من المشاعر فلم يكن أبدا يلحظ انتفاضة جسدي ،رغم توهمي في كل مرة أنه سيلحظها.

كبرت وصرت في الستين .. ولم أنس يوما تلك الصفعات والتي بسببها أصبح كل همي في الحياة أن أتفادى الصفعات .. أقلل أخطائي حتى أتحاشى صفعات أبي .. لا أعبر عن رأيي في المدرسة والجامعة لأتحاشى أي صفعة يمكن أن تأتيني من أحدهم .. أكتم في نفسي ولا أعبر عما يغضبني أو يؤلمني حتى أتحاشى صفعات زوجي .

الوحيدة التي لم أحاول تحاشي صفعاتها فقد كنت دائما من يصفعها هي ابنتي .. ابنتي التي قررت دون قرار أن أرد لها كل الصفعات التي وُجهت لي في حياتي .. فأصبح كل همها في الحياة أن تتفادى الصفعات .

كرهت أبي وكرهتني ابنتي .. ولكن يكفي أننا تعلمنا حيل كثيرة في الحياة لتفادي الصفعات .

ادعوني استجب لكم

بعد يوم عمل شاق .. شاق ليس لصعوبة طبيعة العمل ولكن لأنه عمل شاق على نفسها .. عمل اضطرت أن تلتحق به لأنها لم تجد سواه .. ولأنها كانت في حاجة ماسة إلي مصدر رزق قبلت أن تنتمي لعالم هذا العمل الذي لم تحبه يوما.. فهو بعيد عن ميولها وبعيد عن طموحها . طموحها ؟

نعم كان لها يوما ما طموحا نسيته في زحمة الحياة .. كانت ذات يوم تطمح لأن تصبح كاتبة مشهورة ومؤثرة وملهمة .. حاولت كثيرا أن تدق أبواب الصحف المشهورة والمغمورة ولكن جميعها أوصدت في وجهها .. ليس لشيء سوى لأنها كانت متمسكة ببعض المبادئ الخاصة بها وببعض الأفكار التي امتلأت بها رأسها وأرادت أن تخرج إلى النور .. لم يكن ما تكتبه شيق كما أخبروها ليتصدر عناوين أحد الصحف أو المجلات .. شعرت بالفشل بين كل رفض وآخر ولكنها ظلت تحاول .. إلي أن استبد بها اليأس وقررت أن تهجر الكتابة .. حتى الكتابة لنفسها باتت تذكرها بفشلها فهجرتها غير آسفة .

هل يمكن أن يصبح شغفك هو مصدر تعاستك ومصدر يأسك ؟

تجربتها تلك أجابت على هذا التساؤل بنعم .

ولأن الحياة لابد أن تستمر حتى بلا شغف .. فقد اضطرت للبحث عن عمل .. فلا يمكنها أن تستمر عالة على خالتها التي آوتها في بيتها بعد هرب والدتها وقبله زواج والدها من أخرى رفضت أن تضمها بين جنبات بيتها .

كرم خالتها ومشاعرها المرهفة أبت أن تلقي بها في الشارع وقبلت بها ضيفة في منزلها .. ولكنها كانت ضيفة ثقيلة .. بالتحديد كانت ثقيلة على زوج خالتها .. فلماذا يقبل بها في بيته ويتحمل مسئوليتها إن لم يقبل بها أباها وأمها .. هم أولى بها منه .. أليس كذلك ؟ .. هكذا وجه السؤال لزوجته يوم أن تناقشت معه في شأن مكوث آية لديهم .. بعد أيام من هرب والدتها .. لم تكن آية صغيرة وقتها .. كانت في السادسة عشر من عمرها .. كانت في طريقها لتوديع مرحلة الطفولة والخطو نحو مرحلة الشباب .

تتذكر يوم انتقالها لبيت خالتها بحذافيره .. كان استقبال خالتها لها حافلا .. أبناء خالتها الثلاث غمروها بالحب .. أما زوج خالتها فكان استقباله باردا .. باردا لدرجة أشعرتها بحرج من نفسها .. شعرت بغصة في حلقها ابتلعتها وأقنعت نفسها أن موقفه طبيعي .. فهو لم يتعامل معها من قبل سوى مرات معدودة .. وعندما يعرفها جيدا سيحبها .. هكذا أوهمت نفسها .. لتتمكن من قبول نفسها ضيفة في بيته .
أخذتها خالتها لترتاح في غرفة ابنتها أميرة .. مخبرة إياها أن هذه الغرفة ستصبح من اليوم غرفتها هي وأميرة .. أميرة تلك الفتاة الهادئة والتي رحبت بآية وفرحت أنها وجدت من يشاركها غرفتها، فكم تمنت أن يكون لديها أخت واليوم تحققت الأمنية .
انقضى اليوم الأول بهدوء بغض النظر عن إحساس آية تجاه زوج خالتها .
نامت فاستيقظت على صوت زوج خالتها يصيح :

- لازم تكلمي أبوها علشان يديها مصاريفها ، احنا كفاية علينا العيال اللي مش عارفين نكفيهم.

ردت خالتها بصوت حاولت أن يكون خفيضا :

- طيب وطي صوتك علشان البنت ما تسمعش ، وأنا هشوف حل للموضوع ده .

صاح فيها :

- أيوة شوفي حل ، كفاية أصلا إني قبلت تيجي تكتم على نفسي هنا علشان تبطلي زن ، مش هما يخلفوا واحنا نربي .

تعمدت آية أن تبقى في الغرفة حتى غادر زوج خالتها إلى العمل .. خرجت بعدها من الغرفة .. قبلت خالتها دون أن تخبرها بما سمعت .. نظرت خالتها لها في عطف وقالت :

- نمتي كويس يا حبيبتي.
- الحمد لله يا خالتو ربنا يخليك ليا .
- طيب يلا روحي اغسلي وشك عقبال ما أحضرلك الفطار.
- لا يا خالتو اقعدي أنتِ وأنا هعمل كل حاجة.
- خلاص روحي اغسلي وشك وتعالي نحضر الفطار مع بعض.
لم تنتبه خالتها أن عرضها القيام بكل شئ لم يكن سوى قرارا من آية أن تقوم بذلك كمقابل لإقامتها في بيت خالتها .

استمرت طوال السنوات التي قضتها في بيت خالتها تقوم بكافة الأعمال المنزلية بدلا منها.. ولأن خالتها كانت تعتبرها كابنتها لم تمانع في ذلك .. فقد خُيل إليها أنها تستمتع بالقيام بها ، فكانت دائما تقوم بدور المساعدة لها فقط .. وإذا ما صممت على القيام بتلك الأعمال لتتفرغ هي

لاستذكار دروسها رفضت آية بشدة وأخبرتها أنها تستمتع بتلك الأعمال .
بعد مفاوضات كثيرة مع والد آية وافق مرغما على تقديم مبلغ شهري يكفي مصاريفها الشخصية بالكاد .

حاولت آية أن تبحث عن عمل ولكن خالتها رفضت وأخبرتها أنها ستقاطعها تماما إن هي فعلت ذلك قائلة :

-بصي يا آية ، إنتِ زيك زي العيال ، لما تشوفي حد منهم نزل اشتغل قبل ما يخلص كليته ، ابقي إنتِ كمان اشتغلي ، لما تخلصي كليتك اعملي اللي أنتِ عايزاه ، ولو صممتي على اللي بتقوليه اعتبري إنك ما لكيش خالة ، تقعدي مع ولاد خالتك بس لسانك ما يخاطبش لساني.

فشلت آية تماما في اقناعها واضطرت أن ترضخ لرغبتها .

كانت حياتها مقسمة بين الأعمال المنزلية والمذاكرة والكتابة .
من آن لآخر كانت تستمع لكلمات زوج خالتها وتأففه من إقامتها معهم .. وكانت دائما تبتلع تلك الكلمات ولا تخبر أحد أنها سمعتها .. نظراته لها كانت قاسية دائمة .. فلم تجد بد من تحاشي تلك النظرات سوى المكوث في غرفتها طيلة وجوده في المنزل .. لذا كانت نادرا ما تلتقيه .. ورغم مرور السنوات إلا أنه لم يغير الفكرة المسيطرة عليه بأنه آوى في بيته من رفض أبويها إيواءها .. كان يردد دائما:

- أهلها أولى بيها.

حب خالتها وأبناءها لها وخوفها من الوحدة والمجهول كانت أسباب كافية لجعلها تتراجع عن فكرة ترك المنزل هربا من كراهية زوج خالتها وشعورها الدائم أنها عالة عليه .. ولكن إلي متى سيبقى الوضع كما هو عليه .. دائما كان هذا التساؤل يلح عليها.

مر الوقت وتخرجت من الجامعة والتحقت بذلك العمل الذي كاد يقتل روحها.. وظل الحزن يسيطر عليها.. فهي بلا أب وبلا أم وتحيا في بيت رجل لا يريدها .. وكانت لا تملك من أمرها سوى الدعاء.

كانت تلح على الله في الدعاء أن يجبرها جبرا يليق بها .. وفي إحدى ليالي رمضان وقفت بين يدي الله تصلي وتبكي وتبتهل :

_ يارب .. أنا تعبانة وأنت العالم بحالي .. يارب أنا مش بعترض بس عشمي فيك أنك تصلحلي حالي .. مش عارفة أنا عايزة أية بالظبط .. بس أنت عارف انا ممكن أكون محتاجة أية .. يارب بحق قدرتك ورحمتك وكرمك عوضني خير عن أي تعب تعبته في حياتي وساعدني أني أفضل ما ضعفش .

ظلت تدعو وختمت دعائها بقول :

-يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ،أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين .. اللهم يا مبدل الأحوال بدل حالي إلى أحسن الأحوال .

وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة في ذلك اليوم .

كان عامها عام يسر .

أُعجب بها الطبيب المعالج لخالتها والذي رأها مرات متعددة عندما كانت ترافقها عند إجراؤها الفحوصات الطبية .. وبعد أن عرف كل شئ عنها من خالتها تقدم لخطبتها .. ترددت في البداية لأنها لا تعرفه .. ولكنها وافقت أن تقابله بعد أن استخارت الله وسألت عنه بمعرفة أبن خالتها .. رأت فيه رجل صالح تمنت أن يعوضها عن فقدان الأب .. فكان حقا نعم الأب .. وعندما قرأ بعد ما كتبت .. أنبهر بكتاباتها فقام بعرضها على صديق له .. رئيس تحرير لإحدى الصحف المشهورة المشهود لها بالنزاهة والحيادية والذي أعجب بكتاباتها فوافق على نشرها بالصحيفة بشكل دوري .. لم تصدق نفسها عندما أبلغها الخبر .. كادت تحتضنه من فرط السعادة ضحك واقترب منها وقال :

_ رجعتي في كلامك ليه .

فقالت بمرح :

_ اتقل تاخد حاجة نضيفة.

علت ضحكته ثم نظر لها في حنان :

_ كل اللي نفسك فيه هتحققيه وأنا معاكي .. عارفة لية .. علشان أنتِ أحلى حاجة حصلتلي في حياتي .

ابتسمت في خجل وردت :

_ وأنت كل حياتي .. ربنا يخليك ليا ويقدرني على أني أكونلك خير متاع الدنيا .

دخلت أميرة فابتعد عنها وقال موجها كلامه لأميرة :

_ أية يا أميرة .. أنتِ على طول كدة بتيجي في الوقت المناسب .

غمزت بعينها وقالت :

_ أي خدمة .. أنت بس تؤمر .

علت ضحكاتهم .. فدخلت خالتها وقالت :

_ ربنا يسعدكم دائما .. يلا علشان العشا جهز.

اجتمعوا جميعا حول المائدة .. كانت السعادة ترفرف حولهم .. حتى زوج خالتها .. كأن السعادة معدية .. تداخلت الأصوات .. الكل يتحدث ويضحك .. وكذلك هي .. ولكن للحظة علت وجهها ابتسامة شاردة .. كانت تفكر .. كيف تبدل حالها من حيث لا تحتسب .. ابتسمت أكثر عندما أجابتها نفسها .. كانت دعوة صادقة في ساعة استجابة .. فالدعاء يغير القدر .

المسطرة

صغارا كنا _ في الصف الثالث الابتدائي _ زميلي كان هو .. لم نكن يوما أصدقاء .. اسمه كان أحمد.. ولقبه عندي "الطيب" .

كان يمتلك مسطرة باهظة الثمن .. كانت تحتوي على حاسبة وبعض الإمكانيات الأخرى التي لم يكن من المعتاد أن يمتلكها ذلك الوقت طفل في مثل عمرنا .. الوحيد الذي كان يمتلك مسطرة مثلها في المدرسة كان هو .

ذات مرة عاقبته المعلمة لأنه انشغل باللعب بها _بالمسطرة _ أثناء شرحها للدرس .. أخذتها منه وأعطتها لي كي أحتفظ بها للغد عقابا له .. اختارتني أنا بالذات لعلمها بأمانتي ولأنني كنت مميزة لديها .

وضعت المسطرة في حقيبتي تنفيذا لطلبها وداخلي رغبة لأن أرفض عقابه أو على الأقل أن يكون لي دور في ذلك العقاب .. ولكنني لم أرفض لعلمي أنها ستغضب إن رفضت ولعلمي أنني سأردها له بالغد وليس الغد ببعيد .

أخبرته بعد انتهاء الحصة أنني سأعيد له المسطرة غدا وأن عليه ألا يحزن .. فابتسم قائلا :

- إن شاء الله.

عدت إلى المنزل ونسيت أن داخل حقيبتي شئ لا يخصني .. وضعت الحقيبة دون اهتمام في مكانها المعتاد .. ولا أدري حتى الآن ماذا حدث لتنكسر المسطرة نصفين .

عندما فتحت الحقيبة لأُخرج منها الكتب صدمني المشهد .. ارتفعت الدماء في رأسي رغم صغر سني .. ماذا سأفعل ؟ وماذا سأقول للمعلمة ؟ وكيف سأرد الأمانة ؟ وماذا سأقول لأحمد ؟

منذ صغري لا أحب أن أشارك أحد في حل مشكلاتي .. لذا لم أخبر أمي أو أبي بما حدث .

كل ما فعلته أنني قمت بلصق المسطرة لأجمع أجزاءها .. وذهبت في اليوم التالي لأقف أمامه وكلي حرج .

تلعثمت في الكلام .. وقد لاحظ تلعثمي .. أخرجت المسطرة من حقيبتي ومددت يدي لأُعطيها له قائلة :

- أعتذر لقد وجدت المسطرة مكسورة في الحقيبة ولا أعلم كيف حدث ذلك.

وببراءة طفل وتصرف رجل .. ابتسم أحمد وقال :

- ولا يهمك .. فداكِ.

وقام بكسر المسطرة أمامي من نفس الموضع الذي قمت بلصقها منه .

قلت :

-ولكني من كسرتها، أخبرني بثمنها كي أحضره لك في الغد.

رفض بشكل قاطع إخباري بثمنها وظل محتفظا بابتسامته كي يزيل عني الحرج .. وبعد إلحاحي ورفضه، شكرته وانصرفت وكلي امتنان .

أعلم أنه حزن يومها .. وأعلم أنه فعل ما فعل جبرا بخاطري ودفعا للحرج عني .. وأعلم أن موقفه هذا أدهشني .

افترقنا منذ سنوات كثيرة جدا .. ولكنني حتى الآن لم أنس له هذا الموقف .. فمهما مرت السنوات .. لن ننس من جبر بخواطرنا أو رفع عنا الحرج أو مد لنا يد العون .. باختصار المواقف الطيبة لا تُمحى من الذاكرة ولا تنسى .

بعيدا عن متناول الرجال

طفولتي كانت عادية إلى أن فقدت أبي .. لا لم يمت .. تركني وأمي نصارع الدنيا دون رعاية أحد .. كانت صدمتها صدمة عندما أخبرها أنه سيتركها ليتزوج من أجنبية ستساعده على الهجرة للخارج .. فمصر لم تعد مبتغاه ..أكد لها أنه سيظل على تواصله معنا إن احتجناه . يومها أخرست الصدمة أمي .. ظلت شاخصة ببصرها وهو يجهز حقيبته .. صامتة لا تحرك ساكنا وكأنها لا تعي ما قال ولا ما يفعل .. وقبل أن يتركنا خلفه .. أخرج ورقة من جيبه وأعطاها لها .. كانت ورقة طلاقها .. طلقها لأن قوانين بلد زوجته لا تسمح له بالجمع بين زوجتين .. أعطاها إياها دون أن تبدو عليه علامة واحدة من علامات الرحمة أو الشفقة أو التردد .

صغيرة كنت لذا لم أعي ما يقول .. ولكنني وعيت أنني فقدت أبي إلى الأبد .. وعي جاء عن احساس سيطر علي وليس عن فهم لما قال .. فقد كنت يومها في السادسة من عمري .

قبلني قبل أن ينصرف وطلب مني أن أطيع أمي وألا أرهقها .. لم اسأله يومها إلى أين سيذهب ولم استعطفه ليبقي .. وما أن انصرف حتي انهمرت دموع أمي .

ظلت تبكي وتبكي وكأن دموع العالم سكنت في عينيها هي فقط .. سكنت منذ زمن لتمطر الآن مطرا أغرقني لسنوات قادمة .

لم أبكِ يومها .. فقط أخذت أربت علي كتفها حتى هدأت ونامت .. نامت كمدا ونمت إلى جوارها خوفا.

يومها كرهت أبي .. وكرهت كل الرجال .. وقررت في اللاوعي أن أحتفظ بقلبي بعيدا عن متناول الرجال .

كنت أرى وجه أمي يزداد شحوبا وجسدها نحولا وخلقها ضيقا .. يمر يومها بصعوبة .. تارة تبكي وتارة تصمت .. وكان أكثر ما يُخرجها من صمتها أنا .. فقد كانت مضطرة لأن ترعاني فهي من بقيت لي بعد أبي .. هي المسئولة عني مرغمة وإن لم تكن في الحقيقة مرغمة .. فقد كان يمكنها أن تتخلى عني مثلما فعل أبي ولكنها لم تفعل .

جاء خالي بعد أيام ليأخذنا للإقامة في بيته مبررا ذلك بأنه لا يصح أن نبقى بمفردنا وأن كلام الناس سيزداد إذا ما ظلت أمي بعد طلاقها تعيش دون رجل .. وقتها رفضت أمي مبررة ذلك بأن بيته بالكاد يكفيه هو وزوجته وأولاده .. لم يجادها وكأنه كان يدعو من البداية أن يكون ذلك ردها .

فهمت يومها رغم صغر سني أن الحياة ستُرغمنا أن نخوض معاركها وحيدتين .. فكل من حولنا مُثقل بهمومه والتزاماته ولا ينقصه هم أو التزام جديد .

غادر خالي بعد أن أنهى حديثه معها بعبارة جارحة " صوني نفسك وابنتك .. فكفانا فضائح ". امتلأت عيني أمي بالدموع والتي لا أعلم حتى الآن كيف امرتها أن تعود من حيث جاءت وألا تسقط .. كيف يا أمي استطعتِ أن تظلي قوية رغم أن كلماته قتلتك ؟ وكيف استطاع هو أن ينطق بكلمات كتلك وهو يعلم أن طلاقك كان السكين التي غرست في قلب الضحية دون إرادة منه ودون حتى ذرة رحمة من غارسها ؟ .. وكيف رغم أنه رجل لم يتحلى يومها بشيم الرجال ؟.. وكيف أن موقفه كفعل أبي جعلني أقرر مرة أخرى في اللاوعي أن أحتفظ بقلبي بعيدا عن متناول الرجال ؟

مرت الأيام بطيئة متعبة مرهقة لكلينا .. فبعد أن أفاقت أمي من صدمة طلاقها .. اضطرت للعمل بائعة في أحد المحلات لكي تستطيع توفير احتياجاتنا .

التحقت أنا بالمدرسة في نفس العام الذي تركنا فيه أبي .. مرت الأيام متشابهة ما بين مضايقات لأمي من رجال حولنا أو في عملها .. وكأن كلهم أجمعوا على فكرة واحدة وهي أن أمي أصبحت مستباحة لأنها مطلقة .. وما بين صمود منها وعدم رضوخ لأي اغراءات، ولا تنازل عن مبادئها التي نشأت وتربت عليها والتي أمرها بها دينها .

كانت كل نظرة أو كلمة جارحة لأمي تزيد من كرهي لمجتمع الرجال .. فالرجال كلهم إما خونة كأبي وإما عديمي المشاعر كخالي وإما منحرفين ومعدومي الضمير كالكثير ممن قابل أمي وإما وحوش كمن قابلني .. فقد كبرت لأصبح محط أنظار من كان يراود أمي عن نفسها .. أصبحت كذلك مطمع لهم لأنني بلا رجل .

مرت السنوات ولم نسمع أي خبر عن أبي .. ولم يكلف خاطره بالسؤال عنا .

أما خالي فقد اكتفى بكلماته الجارحة لأمي يوم أن زارها واقتصرت علاقته بنا بعد ذلك على مجرد زيارة على فترات متباعدة .. يطمئن خلالها أننا لم نسبب له فضيحة جديدة بعد فضيحة الطلاق .. مجرد تأدية واجب حتى لا يلوم عليه الناس وكي لا يتهمه أحد بالتقصير .. وكأن زياراته المتباعدة تلك وكلماته عديمة المعنى هي البرهان على قيامه بواجبه كرجل تجاهنا .

يوم يمر ويأتي آخر بلا جديد .. إلى أن ظهر من رسخ في الوعي واللاوعي عندي أنه لابد أن أحتفظ بقلبي بعيدا عن متناول الرجال.

أدهم .. ذلك الشاب الذي رغم قراري بالابتعاد عن كل الرجال .. تمكن من احتلال قلبي وعقلي رغما عني .. منيت نفسي أن أطوي صفحات الماضي به .. تناسيت كل راسخ في عقلي عن مجتمع الرجال .. تخيلت أنه سيأخذني إلى عالم جديد .. عالم ملئ بالحب والأمان .

تقدم لخطبتي فكنت أسعد فتاة على وجه الأرض .. عامان هما عمر خطبتنا .. كان فيهما بمثابة الأب والأخ والصديق والسند .. وقبل موعد زفافنا بأيام .. وبعد أن استأجرت فستان زفافي فاجأني بما لم أكن أتو زفافهما قعه .. ببساطة أخبرني .. أن يوم زفافنا لن أكون أنا العروس الوحيدة .. فأنا لست خطيبته الوحيدة .

-مزحة سخيفة

هكذا قلت بضيق .

وبدون أي تأثر وكأنه حق من حقوقه أكد أنها ليست مزحة وأنه بالفعل خطب فتاة أخرى منذ شهرين ولم يُرد أن يخبرني حتى لا أنزعج .

أبى عقلي تصديقه .. مؤكد أنه يمزح .. أقسم لي .. فأبى قلبي تصديقه .. وعندما فشل في إقناعي أنها الحقيقة .. اتصل بها .

فتح مكبر الصوت وجعلني أستمع للمكالمة والتي أخبرها فيها أن عليها أن تُنهي تجهيزاتها لأن موعد الزفاف اقترب .

صرخت فيه بكل ما أوتيت من قوة :

- كيف ولماذا ومتى ؟

وبهدوء قال أنه تعرف إليها منذ ثلاثة أشهر وأنه أحبها كما أحبني .

بقيت صامتة أحدق به فأضاف أنها فتاة طيبة وأنه أخبرها بأمر خطبتنا منذ البداية وطلب منها أن تقبل الجمع بيننا مؤكدا أن الشرع أعطاه الحق في الزواج من أربع .. وأنه سيكتفي باثنين وأنه سيعدل بيننا ولأن الفتاة متدينة لم تُمانع لأنه حقه .. أنهى حديثه ببرود فلم يكن مني إلا أن نزعت خاتمه من يدي .. ألقيته أرضا وقلت :

- أخبر عروسك أن الشرع أحل لي ألا أتزوج بمخادع وأنني أتمنى لها حياة سعيدة مع امرأة غيري .. وأنني لم أكن أبدا مخطئة عندما قررت أن احتفظ بقلبي بعيدا عن متناول الرجال .

أعذار واهية

دق هاتفها ليعلن عن وصول رسالة إلكترونية .. التقطته لترى من المرسل لتجد اسم أمجد .. قرأت الرسالة من الخارج دون اكتراث .. كان مضمونها " ازيك يا ندا .. عاملة أية " .. لم تهتم ولم يتراقص قلبها فرحا كما الماضي .. فحتى وقت ليس ببعيد كانت مجرد رؤية اسمه على هاتفها كافية لتتهلل اساريرها ولتطير فرحا .

لم تفتح الرسالة ووضعت الهاتف إلى جانبها وعادت لتكمل قراءة كتابها الذي كان بين يديها .

لم تمر أكثر من ساعة حتى أعلن هاتفها عن صوت اتصال .. امسكت به لتجد اسم أمجد من جديد .. ترددت قليلا في إجابة الاتصال ثم حسمت أمرها وردت قائلة :

_ آلو

_ آلو .. ازيك يا ندا

_ الحمد لله .. ازيك يا أمجد

_ الحمد لله أنا كويس .. أنتِ فين مش ظاهرة .. بقالي فترة ما سمعتش صوتك ولا بتسألي عليا خالص .

أجابت بعد قليل من الصمت :

_ لا أبدا موجودة .. انت أخبارك أية ؟

سألها بضيق:

_ ممكن أعرف أنتِ ليه مش بتسألي عليا ؟

ردت بحدة :

_ يعني .. ما فيش حاجة جديدة أسأل علشانها .. أنا عارفة إنك كويس.

رد مستنكرا :

_ وهو المفروض ما تسأليش عليا غير لما يكون فيه حاجة جديدة .. وبعدين عرفتي منين إني كويس ؟

أجابت بهدوء :

_ عادي يا أمجد أنا ما بحبش أزعجك .. وبقول لو فيه حاجة مهمة أنت هتكلمني .

قال محاولا أن يبدو هادئا :

_ تمام يا ندا .. عموما أنا كنت بطمن عليكِ بس .. أنتِ كويسة ؟

أجابت :

_ الحمد لله أنا كويسة .

لم يتمالك نفسه هذه المرة عندما استمع لصوتها الهادئ وقال بتوتر :

_ هو فيه أية يا ندا .. أنتِ مالك متغيرة كدة لية .. فهميني.

لم تستطع هي الأخرى الاستمرار في تصنع اللامبالاة وقالت :

_ ما فيش يا أمجد .. عايز الصراحة .. أنا فعلا متعمدة ما اتصلش ولا أسأل .. عارف لية ؟ واكملت دون أن تعطيه فرصة للرد :

_علشان أنا يا ما سألت وياما اهتميت .. كنت مش بستحمل اقعد اسبوع ما عرفش عنك حاجة .. كنت بموت من القلق عليك لو غبت فترة من غير ما أعرف اخبارك .. وكنت رغم إني شايفة إنه مش صح إني اكلمك بكتم صوت الصح اللي جوايا واتجاهله وأدي نفسي مبررات تخليني اكلمك علشان اطمن عليك .. وانت كنت على طول بتقابل اهتمامي بفتور .. وأحيانا بقسوة ..

عارف أنا كام مرة كلمتك علشان اطمن عليك وقفلت معايا في الكلام ؟ .. عارف كام مرة بعتلك رسالة علشان كنت بموت من القلق عليك وأنت كنت بترد بعدها بساعات علشان مش مهتم إنك ترد ؟ .. طاب فاكر كام مرة كنت بتحاول توصلي بشكل غير مباشر إني مش مهمة عندك ؟ وكام مرة كنت بتحاول توصلي إني مش في دماغك لمجرد أنك شاكك إني ممكن أكون بفكر فيك ؟ كتير يا أمجد ده حصل .. وكنت ساعتها بقنع نفسي إنك ما تقصدش أو إنك تقصد علشان خايف إني أتعلق بيك وانك من كتر ما بتعزني خايف تجرحني .

سكتت لبرهة واضافت :

_ طيب عارف يا أمجد إني في وقت من الأوقات كان عندي استعداد اضحي بنفسي وبراحتي علشانك ؟ وانك في عز احساسي ده كنت بتقابل تصرفاتي واهتمامي بقسوة وحدة ؟ كتير يا أمجد ده حصل وأنا كنت بعدي وأقول لأ ما تخسريهوش .. بس جه عليا وقت حسيت إني بظلم نفسي وإني لازم أحب نفسي أكتر من كدة .. وما سمحش لحد مهما كانت أهميته عندي إنه يجرحني .. علشان كدة قررت إني خلاص هرجعك غريب زي ما بدأت غريب .. بص يا أمجد أنا كنت بعزك وما زلت بعزك .. بس فيه مثل بيقول .. كتر القسوة يعلم الجفا .. وانت قسيت عليا كتير لحد ما خلتني اعرف أبقى جافية .. بقيت اعرف وانا في عز قلقي عليك اشغل نفسي عنك .. ووأنا في عز افتقادي ليك اتجاهلك .. وفي عز ما ببقى هموت واسمع صوتك ،ما اردش لما تتصل .. عرفت تخلي كل الحنان اللي جوايا ليك يتحول لجفا .

بصوت حمل مزيج من الحزن والأسى قال :

_ ياااا .. كل ده يا ندا .. طيب أنتِ عارفة كنت بعمل كدة ليه ؟

انتظر ردها .. ولما لم ترد أجاب :

_ كنت بعمل كدة من كتر خوفي عليكِ .. عارفة إني بخاف عليكِ من نفسي علشان كدة كنت بحاول أخليكِ ما تتعلقيش بيا .. علشان أنتِ أنقى وأطهر من إنكِ تبقي لواحد زي .. أنا كنت بتألم جدا وأنا حاسس إني مزعلك .. وكنت بجرح نفسي ألف مرة قبل ما أجرحك .. كنت بطمن عليكِ من كل الناس اللي ينفع اطمن عليكِ منهم وأجي قدامك أحسسك إني مش مهتم أعرف أخبارك .. بس لما بعدتي أوي كدة لقيت نفسي بموت .. انا بحبك ورغم حبي ليكِ ما ينفعش أربط حياتك بحياتي علشان مصلحتك مش علشاني .. أنتِ اروع إنسانة قابلتها في حياتي واللي يكون ليا الفخر إني أكون ليها وتكون ليا .. بس إنتي هتتضري من وجودي في حياتك .. علشان كدة كنت بحاول أبعدك .. بقول فترة وهتنسيني لأني كنت حاسس من غير ما تتكلمي انك بتحبيني .. أنا من كتر ما بحبك بتمنالك حياة أحسن من حد أحسن مني .. عارف أنك حبتيني غصب عنك، علشان كدة كنت بحاول ارجعك لعقلك اللي هيخليكِ تفهمي إني مش إنسان صالح ينفع تكملي حياتك معاه .. اللي بيحب حد يا ندا بيتمناله السعادة حتى لو مش معاه .. حرام عليكِ يا ندا ليه اضطرتيني اقول اللي خبيته من سنين .

علا شهيقها وجاء صوتها متهدج :

_ خلاص يا أمجد انساني واعتبر إنك ما عرفتنيش .. ولو ليا عندك ذرة معزة ما تحاولش تكلمني تاني .. وأنا أكيد هبقى كويسة .. بس طول ما أنت حواليا مش هعرف أبقى كويسة .. واتمنالك حياة سعيدة .

رد باكيا :

_ حاضر يا ندا .. بس افتكري برضو إن ده كان غصب عني .

وبعد قليل من الصمت ودعها قائلا :

_ خلي بالك من نفسك يا ندا .. مع السلامة .

ردت بصوت مبحوح :

_ مع السلامة يا أمجد .

أغلقت الخط وأخذت تبكي وتبكي وبعد أن هدأت قررت أن هذه ستكون أخر دمعاتها على من لا يستحق .. فلو أرادها بحق لما تركها.

درس تعلمته

جلست بدور بجواري وبصوت خفيض قالت :

ـ أنا مخنوقة جدا من تلا ، ومش عارفة هي بتعمل معايا كدة ليه .. بجد تلا دي إنسانة مش كويسة .

أَخَذَت تسرد عليّ موقفا أغضبها من تلا .. تبعته بتلك الكلمات .

تلا هذه إحدى صديقات بدور المقربات .. أما أنا فمجرد زميلة لهما .

حللت لها موقف تلا من وجهة نظري وهدأتها من ناحيتها .. وكانت نيتي الصلح بينهما رغم علمي أن تلا أخطأت في حقها .

في اليوم التالي وجدتها تضحك ملأ فمها مع تلا وتتحدث معها كما لو كانت لم تغضب منها قط .. تثرثر معها بود كما لو كانت لم تحدثني عنها هكذا بالأمس .

تعجبت بشدة مما رأيت.. فسرت ما شاهدته على أنه نفاقا .. فكيف تتعامل معها بهذه الأريحية وهي التي كانت تشتكي منها وتتحدث عنها بتلك الغلظة منذ ساعات .. كنت في شدة استيائي .. ولكنني لم أخبرها.

كان هذا حكمي بالأمس على مشهد كهذا .

أما اليوم حينما يتكرر هذا المشهد فإنني لا أفسره نفاقا .. هو فقط ثورة موقف .

فبعض المواقف تجعلنا ثائرين فنتوهم وقتها أن من فعل ما ضايقنا أصبح من أعدائنا .. ولكن بمجرد أن نهدأ فإننا ننسى ما حدث وكأنه لم يكن .

كان حديث بدور معي مجرد فضفضة.. ولأن غضبها كان في ذروته، تخيلت أنها لا تطيق صديقتها .. فنطق لسانها بكلمات لم تكن تعنيها بالضرورة .. هي فقط غاضبة .. ولكن بمجرد أن هدأت طغى الود على الغضب فلانت ونسيت ما قالت .

ليس صحيحا أن كل ما يُقال أثناء الغضب هو الحقيقة .. فالغضب أحيانا يجعلنا نهذي بكلمات بعيدة كل البعد عما تكنه صدورنا .. هكذا تعلمت من موقف بدور وتلا.

عدت إلى الله

قال تعالي " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمي " صدق الله العظيم .
كلمتان في آية اختصرتا حياتي الماضية .. معيشة ضنكا .. وصف دقيق لحياتي قبل التوبة .. أو لنقل قبل أن أعود إلى الله .
في الماضي القريب كانت حياتي عبارة عن لهو وانغماس في الذنوب .. اعتقد أنه ليس هناك ذنبا أو فعلا فاحشا لم أجربه .. بدت حياتي كمستنقع خطايا .. لا أذكر الله سوى عند مرضي أو مرض أمي .. عندما يشتد عليّ المرض أو عليها أجدني دون وعي أنطقها .. اللهم اشفني .. اللهم اشفها .. وعندما يستجب أعود لحياتي اللاهية .

صحبة السوء كانت السبب كما كانت تخبرني أمي .. ولكنني الآن اعترف أنها ليست فقط صحبة السوء .. إنها نفسي الأمارة بالسوء .. شيطاني الذي صاحبني لعشر سنوات كاملة .. أنساني فيهم أن الله ناظري .

ولدت في أسرة ميسورة الحال .. توفي أبي قبل أن أكمل عامي الثاني .. ترك لنا ثروة لا بأس بها .. ما تبقي لنا منها بعد توزيع ميراثه كان يكفينا لنحيا حياة كريمة لأعوام قادمة .. دللتني أمي لتعوضني عن فقدان أبي .. ولكنها رغم تدليلي حاولت أن تغرس قيمها التي تربت عليها في .. حاولت جاهدة أن تعلق قلبي بالله كما تعلق قلبها به .

أمي هذه المرأة الحنون الطيبة .. لا تُقبل على فعل قبل أن تفكر هل سيرضي فعلها الله أم لا .. لا تتفوه بكلمة قبل أن تستشعر داخها رضاء الله عنها .. أمي كانت رائعة وكانت تستحق ابنة رائعة مثلها .. وكنت أنا لا استحق أن أكون ابنة لمثلها .
حتي الخامسة عشر من عمري كنت أقرب للالتزام مني إلي غيره .. الصلاة عماد الدين كما علمتني أمي .. كنت لا أترك فرضا .. الصيام رابع أركان الإسلام .. لم أفطر يوما بلا عذر منذ أن كنت في السابعة من عمري .. طاعة الوالدين من أهم مداخل رضا الله .. لم أكن أعصي لأمي أمرا .. كنت ملتزمة لدرجة أنني كنت فخر أمي بين الجميع .
عندما خطوت بقدمي لعامي الخامس عشر .. بدأت رحلة جديدة من حياتي رحلة جعلت حياتي حياتا ضنكا .. بدأت أقصر في صلاتي إلي أن تركتها بالكلية .. كنت أصوم رمضان خوفا من أن يؤذيني أحدهم بكلمة .. وبدأت أتحول في معاملة أمي .. من ابنة بارة بوالدتها إلى ابنة عاقة .. شئ فشئ وجدتني حقا انصرف عن كل ما أمرنا الله به .. حتى عن ذكره .

تبدلت حياتي فصارت حقا ضنكا .. انضممت لمجموعة فتايات مشهورات في المدرسة بالفشل والوقاحة .. صرت منهم .. أتخلق بخلقهن .. وأفعل مثل أفعالهن .

حاولت أمي أن تعيدني لما كنت عليه .. باءت كل محاولاتها بالفشل .. في البداية كنت أفعل ما يحلو لي دون علمها .. وبعد فترة صرت لا اهتم إن كان بعلمها أو دون علمها .. تعرفت من خلال صديقاتي على أصدقاء شباب تشبه أخلاقهم أخلاقي الجديدة .. كنا نتواعد ونخرج في مجموعات .. لا تفصل بيننا حواجز ولا قيم .. ولا يردعنا دين ولا مبادئ .. كل هذا وأمي تحاول أن تعيدني إلي سيرتي الأولي مرة بالترغيب وبتذكيري بالله ومرة بالترهيب، حتي وصل الأمر لضربي أكثر من مرة .. ورغم كل محاولاتها كان إصراري يزداد يوما بعد يوم أن أتمسك بحياتي الجديدة .

وقت المعصية أيا كان نوعها كنت أشعر بلذة .. وبعدها أشعر وكأن شئ يجثم على صدري يكاد يخنقني .. أصبح شعور الضيق يصاحبني أينما كنت وأينما ذهبت .. غصة بحلقي لا تفارقني ..

لم أكن أعي سبب شعوري هذا .. كنت في شدة استغراب، فأنا أفعل كل ما يحلو لي .. ولدي ما تتمناه الكثيرات غيري .. جمال وصحة ومال وأصدقاء .. أذهب كل يوم لمكان جديد .. وأقضي أوقات ممتعة .. فلماذا كل هذا الضيق ولماذا كل هذا الحزن الداخلي .
مرت الأيام ما بين لهو ممتع وضيق مصاحب .. حتي بدأت حياتي في الانهيار .. رسبت لعدة مرات في الكلية وأصبح هذا العام هو فرصتي الوحيدة فإما أن أنجح وإما سيتم فصلي من الكلية .. غضبت علي أمي لدرجة أنها كانت لا تسألني حتى عن حالي .. حتى صديقاتي ابتعدن عني بلا سبب .. ورفض الشخص الوحيد الذي أحببته أن يتزوجني أو حتى أن يستمر على علاقته بي .. كل هذا وأنا لا أفهم لماذا يحدث كل هذا معي .. إلى أن استمعت لأمي يوما بالمصادفة وهي تقرأ وردها من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم " ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا.. ونحشره يوم القيامة أعمى " .

بكيت يومها كما لم أبكِ من قبل .. ذهبت لأمي .. رميت نفسي بين أحضانها واعتذرت .. اخبرتها أنني نادمة على كل ما حدث .. شكوت لها هذا الثقل الجاثم على صدري .. مسحت على شعرى وفتحت مصحفها وقرأت علي .. بسم الله الرحمن الرحيم " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا .. يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا " صدق الله العظيم .
اغتسلت وصليت ركعتي استغفار .. تحدثت فيهما مع الله .. استغفرت عن كل ما فعلت .. وشكوت له كل ما عانيت .. وما إن سلمت حتي تملكتني السكينة .. أصبح قلبي هادئا .. لم يعد هذا الشيء يجثم على صدري .. شعرت بخفة لم أشعر بها منذ زمن .. ومن يومها وأنا أشعر بسكون قلبي .. مهما حدث ألجأ فقط إلي الله فيهدأ قلبي وتسكن روحي .. علمت أن للاستغفار سحر .. ليس استغفار اللسان فقط وانما استغفار الجوارح .
صرت كلما توضأت استحضر ذنبا من ذنوبي أو أكثر فاستغفر الله عليه عازمة ألا أعود إليه .. فإذا غسلت يدي في الوضوء استحضرت ذنبا استخدمت فيه يدي فاستغفر الله عنه .. وإذا غسلت فمي استحضرت ذنبا استخدمت فيه فمي فاستغفر الله عنه .. وهكذا .. وعندما أنهي وضوئي أردد " اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين " .. صرت استحضر ذنوبي واستغفر الله عنها بقلبي ولساني .. علني أُقبل.
سأظل بباب الله إلي أن يقبلني .. هكذا حدثت نفسي .. وهكذا رزقني الله كما وعد المستغفرين .. فقد أرسل الله علي السماء مدرارا .. أصبحت كل حياتي خيرات متتابعة وأصبح قلبي راضي حتى وإن فقد كل شئ على وجه الأرض .. فقط لأنني عدت إلي الله .

فاللهم توبة ليس بعدها عودة لذنب .. واللهم قبول ليس بعده غضب .. اللهم حبك .. اللهم معيتك.

أحببت عمياء

لا أدري هل كان خطئي أنني أحببتها أم أنني أحببتها دون عقل .. لم يكن يعنيني شئ سوى أن تظل معي وأن أحيا معها .. قلبي حجب عقلي .. سيطر عليه سيطرة كلية .. سيطرة جعلت قراري قرارا عاطفيا بحتا .. نادم أنا الآن .. ليس فقط من أجلي ولكن من أجلها أيضا .. فأنا من وضعتها في هذا الموقف .. أنا الذي أيقظت داخلها الرغبة في أن تصبح زوجة وأم بعد أن كانت قد أقلمت نفسها على الوحدة .. أنا من دمرها أكثر مما كانت .. أجلس الآن في مواجهتها .. هي لا تراني ولكن من المؤكد أنها تشعر بي .. كلماتي كانت قاسية ولكنني كنت مضطرا لقولها .. أناني أنا .. أعلم .. حاولت أن أؤثرها على نفسي ولكنني لم استطع .. تستحق هي أنا أؤثرها على نفسي ولكن أظلم الناس أظلمهم لنفسه وأنا لا أريد أن أظلم نفسي أكثر من ذلك .

استرجع الآن كل ما حدث خلال العامين الماضيين .. منذ اليوم الأول الذي التقيتها فيه .
كنت مدعوا لحفل زفاف أحد أقاربنا وكانت هي مدعوة أيضا .. فالعروس صديقتها .. منذ أن وقعت عيني عليها شعرت بدقات قلبي تتسارع .. خطف جمالها عيني فقد كانت أجمل المدعوين بل كانت أجمل من العروس نفسها .. وخطف هدوءها قلبي .. اقتربت من العريس وسألته عنها .. أخبرني أنها صديقة العروس .. وددت لو أخبرني أكثر عنها ولكنه لم يهتم فقد كان منشغلا بعروسه وبليلة عمره كما يقولون .
ظللت أراقبها من بعيد .. لم تفارق ابتسامتها وجهها .. ابتسامة ساحرة تكشف عن أسنان مصطفة اصطفافا دقيقا .. لامعة من شدة البياض .. شفاة صغيرة وأنف دقيق وعينان تأخذانك لعالم أخر .. سبحان الخالق العظيم .. هذا ما رددته في نفسي وقتها .. وددت أن اقترب منها لأتحدث معها لكنني لم أفعل .. اكتفيت بمراقبتها من بعيد .. ولسوء حظي طلبت مني أمي أن ننصرف قبل نهاية الحفل فرأسها تؤلمها من الموسيقي والأغاني العالية .
عدت إلي منزلي وظل قلبي هناك حيث توجد هي .. أردت يومها أن أتصل بالعريس لأسأله أكثر عنها ولكنني منعت نفسي، فمن غير اللائق أن أتصل به اليوم ولا الأيام القادمة .

انتظرت ثلاثة أيام انتظارا على أحر من الجمر .. لم تفارقني صورتها خلالها .. وفي اليوم الرابع اتصلت به .. سألته عنها باستفاضة .. فقد عزمت على أن أتقدم لخطبتها .. أخبرني أن أسمها ندا وأن عمرها ثلاث وعشرون عاما وأن والديها متوفيان وتعيش في بيت عمها .. وأنها فتاة رائعة وأن زوجته دائمة المدح لها .

كدت أطير فرحا .. ها هي فتاة أحلامي تجسدت فيها .. ولكنه أنهي كلامه بأنها للأسف عمياء.

وقعت كلمته كالصاعقة علي .. قلت :

- لا حول ولا قوة إلا بالله عيناها لا يبدو عليهما ذلك.

رد قائلا :

- نعم فهي لم تكن كذلك .. فقد فقدت بصرها على إثر حادث تعرضت له هي ووالديها منذ خمس سنوات ، فقدت فيه أبويها وبصرها .. أتلفت الإصابة التي تعرضت لها مركز الإبصار في المخ لديها .. لذا لم يتأثر مظهر عينها .. فقدت نورهما ولم تفقد جمالهما.

اغتظت منه عندما تلفظ بجملته الأخيرة كأنها أصبحت شخص يخصني وليس من حق أحد أن يتحدث عنها هكذا .. أنهيت حديثي معه وقد بدأت الحيرة تسيطر علىّ .. فكرت كثيرا بعدها وترددت .

حاولت أن أنسى الموضوع برمته ولكنني لم أستطع وكأن شيئا خفي قد علقني بها دون إرادة مني.. شيء جعلني لم أستطع إخراجها من رأسي .. وأثناء تفكيري المرهق هذا .. تذكرت أحد أصدقائي الذي تزوج منذ ثلاث سنوات من كفيفة وما زال سعيدا معها .. تذكرت حديثه عنها وسعادته بها .. أقنعت نفسي أنه كما تقبل الأمر واستطاع التعامل معه، فإنني يمكنني أن أفعل .. حسمت هذه الفكرة الأخيرة ترددي وعزمت على التقدم لندا .. سأخطبها وليكن ما يكون .

نسيت وقتها أن القواعد ليست ثابتة في مثل هذه الأمور وأن المناسب لغيري ليس بالضرورة أن يكون مناسبا لي .. وأن ما قد يتحمله غيري قد لا أتحمله أنا .. نسيت أن شخصيتي مختلفة تماما عن صديقي هذا وأن ظروفه مختلفة عن ظروفي كذلك .

عارض الجميع من حولي فكرة ارتباطي بندا وخصوصا أمي .. ولكنني صممت وتقدمت لخطبتها .

رفضت هي في البداية .. رفضت حتى مقابلتي .. فطلبت من عمها أن يسمح لي بمقابلتها مرة واحدة .. وافق بعد إلحاح مني ووافقت هي علي مقابلتي بعد إلحاح منه .. حدد الموعد وذهبت وكلي أمل أن أنجح في إقناعها .

كانت المرة الأولى التي استمع لصوتها .. صوت رقيق هادئ مستسلم لابتلاءات الله راضيا بها .. زاد إعجابي بها .. أخبرتني أنها لا يمكنها أن تصبح زوجة وأم .. فهي لا تستطع أن تصبح مسئولة عن زوج وبيت وأبناء .. أخبرتني أنها راضية بما كتبه الله عليها ولكنها لا تريد أن تظلم أحدا معها .. ولا تريد أن تصبح عبأ علي أحد .. يكفيها أنها أصبحت عبأ على عمها وزوجته .

استخدمت كل وسائل الإقناع التي أعرفها والتي لا أعرفها لأُثنيها عن قرارها .. طمأنتها .. أخبرتها أنها ستكون سعيدة معي وأنني سأكون عينها التي تُبصر بها .. أقسمت لها أنني لا أرى فيها شيئا ناقصا .. وقتها كنت صادقا فيما أقول .. تخيلت أنني سأفي بوعودي لها وسأكون لها زوجا محبا يعوضها عن كل لحظة ألم عاشتها .. لم أكن أدري أن الكلمات سهلة وأن الصعوبة تكمن في الأفعال .

في اليوم التالي أخبرني عمها أنها وافقت .. وليتها ما وافقت .

مرت فترة الخطوبة بسلام .. لم اشعر بلحظة ندم خلالها على قراري .. بل كان اعجابي وحبي لها يزداد يوما بعد يوم .. جميلة هي جمال داخلي وخارجي .. على ثقة أنا أنها ستكون زوجة رائعة .. أحببتها وصرت أنتظر اليوم الذي سيجمعنا فيه بيتا واحدا .

وجاء اليوم الذي انتظرته كثيرا .. يوم زفافنا .. بدت هي يومها كالقمر في ليلة تمامه .. وبدوت أنا كمن امتلك الدنيا.. كنت سعيدا بها وكانت هي محلقة بي .. ورغم سعادتي إلا أن شيئا كان

ينقصني .. شئ تمنيته وحلمت به كثيرا .. حفل الزفاف .. فنظرا لظروفها لم نقم حفل زفاف .. اكتفينا بعقد القران في أحد المساجد .

لم أسلم يومها من كلام أمي .. والتي همست أكثر من مرة في أذني :

- لقد أفسدت علي فرحتي التي انتظرتها طوال حياتي .. كنت أنتظر يوم زفافك بفارغ الصبر .. حرمت أمك مما تمنت .

طردت من رأسي كلام أمي وتفكيري بأن شيئا ينقصني .. ومنيت نفسي بحياة جديدة مع ندا تعوضني عن هذا الحفل .

مر الأسبوع الأول وأنا أكاد أطير فرحا .. رغم أنني كنت مسئولا مسئولية تامة عنها .. فأنا المسئول عن تسخين وغرف الطعام والذي كانت تعده زوجة عمها يوميا وتحضره لنا .. وأنا المسئول عن غسل الأطباق .. وأنا المسئول عن مساعدة ندا في تحركها داخل الشقة فهي لم تعتدها بعد .. باختصار كنت أنا من أقوم بكل شئ تقريبا .
في البداية لم أكن أشعر بأي ضيق وأنا أفعل ذلك .. بل كنت في منتهى السعادة .
ولكن كل شئ تغير بعد ما يقل عن عشرة أيام من زواجنا .. فلم تعد زوجة عمها تُحضر لنا طعاما .. ولم تعد حتى تأتي لزيارتنا وكأنها تخلصت من حمل ثقيل .. بدأت الأتربة تكسو الشقة .. وحتي ملابسنا أصبحت كلها متسخة .. وانتهت فترة إجازتي فاضطررت للعودة إلى عملي .
كنت أعود إلى المنزل أجد ندى جالسة في هدوء تتصفح أحد كتبها المكتوبة بطريقة برايل أو أجدها تتصفح أحد المواقع المخصصة للمكفوفين .. كانت تستقبلني بحفاوة .. أجلس معها قليلا ثم أذهب لإعداد الطعام .. وكثيرا ما كنت أُحضر طعاما جاهزا معي .. وأقوم بغسل الأطباق بعد أن ننتهي من طعامنا .. وأقوم بتنظيف ما يحتاج لتنظيف في المنزل .. وبغسيل ملابسنا وكيها .. فلم تكن ظروفي المادية تسمح بالاستعانة بخادمة ولا حتي تسمح أن أغسل ملابسي في مغسلة .. بالإضافة لذلك كنت أساعد ندا في كل شئ شخصي يخصها .. أصبحت أشعر بالإرهاق .. فأنا لم اعتد أن أخدم حتى نفسي .. فأمي وأخواتي كانوا مسئولين مسئولية تامة عن الأعمال المنزلية وعن كل ما يخصني .. أصبحت أشعر أنني منهك ولا حياة لي .. فقد أصبحت ربة منزل .

حتي الخروج .. لم تكن ندا تحبه.. وأنا أعشق الخروج والتنزه .
أصبحت أرى ندا عبأ .. بدأت معاملتي تتغير معها .. أصبحت أكثر عصبية .. وأصبحت أهملها كثيرا .
حاولت هي الاعتماد على نفسها حتى تُخفف حملها علي .. فكادت تحترق يوما وهي تحاول أن تطهو لنا طعاما .. وانزلقت مرة في الحمام وهي تحاول أن تغتسل دون مساعدتي .

هي أيضا لم تعتد الاعتماد على نفسها بعد أن فقدت بصرها فدائما كانت تعتمد على زوجة عمها وعمها .
حاولت أن أُسيطر على هذا الشعور الذي بدأ يسيطر علي بأن ندا عبأ .. ذلك الشعور الذي جعلني لم أعد أشعر بنفس مشاعر الحب تجاهها .. أصبحت مشاعري تجاهها شفقة .. ولكنني لم أستطع السيطرة عليه .
وما زاد الطين بلة هو ظهور سلمى في حياتي .. سلمى زميلة جديدة لي في العمل .. فتاة مفعمة بالحياة .. تهتم بي كثيرا .. بدأت مشاعري في التحول تجاهها .. بدأت أحب سلمى .. واصبحت أضع ندا دائما في مقارنة معها .. وكانت الكفة تميل ناحية سلمى .. فلماذا لا أتزوجها ؟
فاتحتها برغبتي في الزواج منها فرفضت متعللة بأنها لا يمكنها أن تتزوج من رجل متزوج ..

فعزمت على تطليق ندا من أجل سلمى .
عدت إلي المنزل باكرا اليوم .. حاولت أن أنتقي كلماتي بدقة حتى لا أتسبب في جرح مشاعر ندا .. ولكن كل الكلمات مهما بدت عادية ستكون قاسية .

أخبرتها أنني أحبها ولكنني أحب زميلة لي أيضا .. وأنني لا أرغب في تركها ولكن الظروف أقوى مني .. تعللت أنني لا أريد لها أن تصبح زوجة مع أخرى وأن حياتها ستكون أفضل دوني .. فأنا لم أعد صالحا للعناية بها ولم أعد الزوج الذي وعدتها أن أكونه .

ردت والدموع تملأ عينها أنها كانت تعلم منذ البداية أنه ليس من السهل أن تجد من يحتملها فهي عبء على الجميع وأنها كانت متقبلة لفكرة أن تحيا وحيدة وأن حياتها كانت هادئة قبلي .. بللت الدموع ردائها وسألتني لماذا فعلت بها ذلك وكيف ستعود لبيت عمها بعد أن تأكدت أنهم قد فرحوا لتخلصهم منها .. أحرقت دمعاتها قلبي .. ولكني تماسكت حتى لا أتراجع عن قراري .

جلست بعدها صامتة وكأنها استسلمت للأمر الواقع وتركت لي أن أضع كلمة النهاية .
أحببت ندا حقا ولكن أحببت نفسي أكثر .. سأتركها وقلبي ينزف ولكن حتما سأنسى يوما وسيدبر الله أمرها .. فلها الله .

ذات الدين

بعد تفكير عميق استغرق ليال كاملة دون نوم .. استجمعت قواها واتصلت به .

أخبرته أنها تريد لقائه لأنها ترغب في الحديث معه في موضوع هام .

استغرب طلبها بشدة .. فهذه المرة الأولى التي تطلب فيها مثل ذلك الطلب .. بل أنها كانت دائمة الرفض لمقابلة زملائها خارج العمل حتى وسط مجموعة .

لم يكن يعلم أنها المرة الأولى في حياتها التي تتجرأ فيها وتطلب مثل هذا الطلب من رجل . وافق وكله فضول .. ما السبب الهام الذي جعلها تهبط من عليائها وتطلب مقابلته .

اتفقا على المكان والزمان .. وجاء موعد اللقاء .

ذهب قبلها بحوالي ربع ساعة .. وعندما تأخرت ظن أنها لن تأتي .

هم بالانصراف .. ولكنه لمحها من بعيد آتية .. فعاد جالسا .

أتت بابتسامة خجلة .. ألقت عليه التحية وجلست أمامه واضعة عينيها على الطاولة التي أمامهما .

بادر هو بالحديث :

_ كيف حالك ؟

أجابت في عبارة مختصرة:

_ الحمد لله

سألها :

_ ماذا تشربين ؟

أخبرته أنها لا تريد شيئا .

أشار إلي النادل وطلب كوبين من عصير المانجو .. فهو يعلم أنها تحبه .

خيم الصمت على المكان لثواني .

كانت هي المبادرة بالحديث هذه المرة وعلامات التوتر بادية عليها لدرجة جعلتها تتلعثم في حديثها أكثر من مرة .

كانت قد أعدت قبل أن تأتي حوارا لن تخرج عنه .. رتبت كلماتها وأعادتها عدة مرات في رأسها لتتمكن من سكبها مرة واحدة عند لقائه .. ولكنها نسيت كل ما رتبت ولا تدري الآن من أين تبدأ.

وجدت نفسها تتحدث دون ترتيب .. بدأت من حيث أرادت أن تنتهي .

قالت :

- ما رأيك في أن نتزوج؟

نظر لها مندهشا غير مصدقا .. عقدت الصدمة لسانه فلم ينبس ببنت شفاه .

استمر ت في حديثها :

-أعلم أنه من غير المألوف أن تطلب فتاة مثل هذا الطلب من رجل .. وأعلم أنك قد ترى في حديثي شئ من الجرأة الغير محمودة .. فكرت في كل الاحتمالات لعدة شهور .. وحاولت منع نفسي من أخذ هذه الخطوة المتهورة .. ولكنني لم أستطع .. لم أكن لأُقبل على خطوة كتلك ولم أكن لأتجرأ للحديث في موضوع مثل هذا لولا ثقتي بأنك رجل على حق .. وأنك لن تستغل موقفي هذا استغلالا يُسئ لي .. وأنك ستحافظ على ما دار بيننا سرا سواء وافقت أم رفضت .. أعلم أنك على قدر كبير من النضج الفكري يسمح لي بالتحدث معك بقدر من الصراحة والتلقائية دون حاجة لأن أنتقي كلماتي .. ثقتي بك وشيء ما داخلي دقعاني لأن أُخبرك برغبتي تلك .. رغبتي أن أصبح زوجة لك .. أنا أحبك منذ ثلاث سنوات .. أقاومك كل يوم داخلي .. خصوصا عندما تأكدت أنك لا تراني ولا تشعر بي .. ولكن على الجانب الآخر أعلم أنك غير مرتبط بفتاة أخرى .. وهذا شجعني على الإعتراف لك .. رغم سيطرة مشاعري علي، إلا أنني درست الموضوع بعقلي دراسة متأنية .. أري أن هناك تناسب كبير بيني وبينك.. أري أنني يمكنني أن أكون زوجة صالحة لك ومحبة .. وأنك ستحبني إن أنت أقتربت مني .. ولكي نتأكد من ذلك يمكنك أن تتقدم لخطبتي .. لنعطي لأنفسنا فرصة نتعرف فيها على بعضنا أكثر ونتأكد من أننا متوافقين حقا .

سكبت كل كلماتها على مسامعه مرة واحدة وكأنها خشيت أن تجبن إن هي توقفت وألا تستطيع العودة لاستكمال ما بدأت .

وعندما انتهت التقط هو أطراف الحديث وقد بدا على وجهه التوتر الملحوظ .

لم يكن بحاجة لأن يفكر في كلامها .. فقد حسم أمرها من قبل داخله ووضعها في ركن الأخوة داخل قلبه .. هي فتاة جيدة ولها قدر كبير من المعزة داخله ولكنه لم يتخيلها زوجة له .. ولا يستطيع تخيلها كذلك .

ابتسم خجلا واشفاقا .. لم يجد ردا أنسب من الرد الذي يستخدمه الجميع في مثل موقفه .. وبصوت مبحوح قال :

- أنتِ فتاة رائعة ويتمناكِ آلاف ولكنني أعتبرك أختي الصغيرة وأتمنى لك زوجا أفضل مني لأنك حقا تستحقين الأفضل .

تمنت وقتها لو أن الأرض انشقت وابتلعتها .. ولكنها حاولت أن تبدو ثابتة .

خبأت خيبتها وحرجها خلف بسمتها وقالت :

_ أريد أن أؤكد على أن يبقي ما دار اليوم، بيننا فقط إلى يوم القيامة وأتمني لك حياة سعيدة مع من تستحقك.

استأذنت بالانصراف لعلمها أنها لن تستطيع السيطرة على دمعاتها إن بقيت أكثر من ذلك.

نظر إليها نظرة ودودة مودعا .. مذيلا وداعه بقوله في رعاية الله .

ظل جالسا مكانه بعد أن انصرفت يفكر .. ما تفسير موقفها هذا .. هل حقا تحبه ولم تستطع منع نفسها من إخباره .. أم أنها وجدت أنه فرصة لا يجب أن تضيعها خصوصا في ظل قلة فرص الزواج المتاحة أمام الفتيات .

أيا كان دافعها فهو غير قادر على الزواج منها .. نعم هي فتاة على خلق وفيها من الصفات ما يجعلها زوجة صالحة .. ولكن ينقصها شئ ما .. شئ يحتاجه هو ولا يجده فيها .

هو بحاجة لفتاة تدلله وهي جادة أكثر من اللازم .. يحتاج فتاة على قدر من الجمال والأنوثة وهي ذات جمال متواضع .. أنوثتها تطل على استحياء .

أمرها محسوم بقوة داخله .. هي لا تصلح زوجة بمعاييره .. ولكنها تصلح صديقة رائعة .

أما هي فقد تركته خلفها متألمة ومنهارة تماما .. تماسكت حتى وصلت لبيتها .. دخلت غرفتها وبدأت في بكاء يشبه النحيب .. ندمت على فعلتها .. كيف وضعت نفسها في هذا الموقف .. هل كان يليق بها وهي التي تحافظ على كرامتها من أن تُمس بكل الطرق أن تعترف لرجل بحبها له وبرغبتها في الزواج منه .. كيف ستتعامل معه بعد أن رفضها وهي مجبره على رؤيته يوميا في العمل .

ذهبت له على أمل أن يقبلها .. والآن ضاع كل أملها فيه .

ظلت تبكي حتى ابتل رداؤها .. وظلت تدعو الله أن يغفر لها ما فعلته بنفسها إن كانت قد أخطأت .

توضأت وصلت وتحدثت إلى الله :

ـ كنت أريده زوجا في حلالك يا الله .. قد أكون أسأت التصرف ولكنك الأعلم بنيتي .. اللهم اغفر لي وأربط على قلبي .

أخذت تدعو إلى أن هدأت جوارحها وسكنت روحها .. وعادت لتخبر نفسها أن ما حدث قد حدث وأن عليها أن تنسى .. كانت محاولة للاحتفاظ بمن تحب .. ولكن دائما الخير فيما أختاره الله .. فلو كان خيرا لأتى .. بررت فعلتها لنفسها أنها لو لم تفعل ما فعلت لظلت في انتظاره .. ولكن ما حدث اليوم قطع الشك باليقين أنه أصبح مستحيلا .. فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

في اليوم التالي قابلته في العمل .. ألقى عليها التحية ككل يوم وتعامل معها كأن شيئا لم يكن .. وظل تعاملهما كالسابق في إطار العمل وإطار المألوف بين الزملاء .

في البداية كان الأمر مرهقا بالنسبة لها، فهي لا زالت تحبه .. ولكنها بدأت تُحدث قلبها بالعقل .. ظلت تُخبره كل يوم أنه لن يكون لها يوما وأنه من غير اللائق أن تفكر فيمن لا يفكر فيها .. شغلت نفسها بتعلم أشياء جديدة بعد العمل .. وكثفت أيام ذهابها للجمعية الخيرية التي كانت قد تطوعت فيها منذ فترة .. لم تعد تثرثر عنه مع صديقتها المقربة .. ضيقت دائرة تعاملها معه أثناء العمل أكثر وأكثر .. شغلت نفسها عنه بكل الطرق .. إلي أن خفت حبه في قلبها وبدأ يتوارى .

أما هو فكان يراقبها في صمت ويكتشف كل يوم جديد في شخصيتها لم يكن يراه .. كان إعجابه يزداد بها يوما بعد يوم .. فقد انتقلت للعمل معه في نفس القسم منذ فترة فأصبح يراها أكثر .. ولكنه ظل على موقفه الأول .. ظل متمسكا برأيه أنها ليست الزوجة التي في خياله .

وكما كان يراقبها هو في صمت فقد كان هناك من يراقبها أيضا .. زميل لهما في نفس القسم .. أُعجب بشخصيتها وأدبها والتزامها منذ أن بدأت في العمل معهم في القسم .. ووجد أن شخصيتها تشده كل يوم أكثر من الذي قبله .. كان شابا وسيما .. ذو خلق ودين .. وبعد تفكير وتريث واستخارة لله، عزم أمره وتقدم لخطبتها فوافقت .

استمرت خطبتهما ثلاثة أشهر تزوجا بعدها .. وسافرا لقضاء إجازة الزواج .

عادا إلى العمل بعد الإجازة مشرقي الأوجه .. ازدادت جمالا بعد زواجها وازداد هو وسامة .. جاءا محتضني الأيدي والأعين .

راقبهما هو من بعيد .. أقنع نفسه أن زهوة البدايات أخذتهما .. وأنهما حتما سيصبحا مثل أي زوجين بعد عدة أشهر من زواجهما .

مر عامان ولمعة عينهما لا تنطفئ .. لا يذكرها أمام زملائه إلا بكل خير .. وفي كل مناسبة يؤكد أن الله قد رزقه بخير متاع الدنيا .

بدأت الغيرة تدب في قلبه فهو حتي الآن يبحث عن زوجة بمواصفاتها بالإضافة إلى المواصفات الأخرى التي يريدها .. لم يجد حتى الآن فتاة أحلامه على الرغم من ارتباطه لعدة مرات بجميلات .. وكانت الغيرة تدب اكثر في قلبه كلما رأى اهتمامها بزوجها وكلما لاحظ حديث أعينهما أثناء فترة العمل .. كلما رأها تزداد بهاءً ويزداد زوجها سعادة .

في إحدى نقاشات رجال القسم الجانبية قرر أن يسأل زوجها ما الذي جذبه لها ليتزوجها .

أخبره أن أخلاقها ودينها ومظهرها المحتشم وهدوءها هو ما جذبه لها في البداية .. ولكنه اكتشف فيها مواطن جديدة زادت انجذابه لها بعد الخطبة .. وبعد الزواج اكتشف مواطن جديدة أخرى جعلته يهيم بها .. مواطن احتفظت بها لزوجها .. فهي حنون جدا .. رقيقة جدا .. وأشياء كثيرة تجعلها خير متاع الدنيا حقا .

صارح زوجها أنه يتمنى أن يجد زوجة مثلها ولكنه أيضا يريد أن تكون على قدر كبير من الجمال والأنوثة .

ابتسم له قائلا :

_ حجاب الفتاة يخبئ خلفه الكثير من جمالها .. وتعاملها الرسمي يخبئ خلفه الكثير من أنوثتها .. المظاهر مهمة ولكنها غير صادقة .. فالفتاة الملتزمة تحاول جاهدة أن تخفي أكثر مما تظهر من مواطن جمالها وأنوثتها تحتفظ بها لزوجها فقط .. تمتلك الكثير من المشاعر الدافئة تأبى أن تحررها سوى مع زوجها .. ويا لحظه من يرزق بزوجة طاهرة عفيفة احتفظت بكل شئ له وحده .. وانتظرت حلال الله .

ودون تعمد منها كانت قد استمعت لحديث زوجها وما قاله عنها .. امتلأت عيناها بالدموع وشعرت بتأنيب ضمير تجاه زوجها لأنها لم تخبره عن اعترافها السابق لغيره بأنها تحبه . استغفرت الله وحمدته على نعمه الستر الجميل وقالت :

_ وحدك تعلم يا الله أنني لم أعصك يوما من هذه الجهة ولم أقترب من رجل غير زوجي .. حتى مشاعري تلك التي اعترفت لغيره بها كانت مشاعر بيني وبين نفسي لم تخرج إلا في ذلك اليوم وكانت محاولة مني أن أمنحها لرجل في حلالك .. سامحني إن كنت أخطأت .. وأدم علي نعمة زوجي الصالح .

وليته ما قالها

نظرت إلى عين الطبيب الذي صمت كأن على رأسه الطير .. حاولت أن أقرأ فيهما أي شئ يطمئنني .. ولكن ملامح وجهه كانت لا تنم عن خير .

ارتعدت أطرافي .. وبهت لوني .. حاولت استجماع شجاعتي لأسأله .. ولكنني لم أستطع .

بعد عدة ثواني مرت كسنوات .. نظر إلي في شفقة قائلا :

_ لم يخلق الله داء إلا وخلق له دواء .. وأحسبك مؤمنة بقضاء الله وقدره .

ابتسمت .. لم أكن في حاجة لأن يكمل .. فمنذ شهر كامل وأنا أجري تحاليل وفحوصات لكي أتأكد من أنني مريضة بسرطان الدم .. وها أنا تأكدت .

أكمل قائلا :

_ للأسف إنه سرطان الدم .

وليته ما قالها .. كان أملي كبيرا أن تكون كل التحاليل السابقة قد أخطأت .. ولكن ماذا سأفعل .. قدر الله وما شاء فعل .

احتفظت بابتسامتي وقلت :

_ الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه .

أخذ يُلقي على مسامعي الكثير من التصبيرات والكلمات التي لم أكن بحاجة لسماعها .. فرغم أنني دعوت كثيرا ألا يكون الأمر كذلك .. إلا إنني كنت قد أقلمت نفسي على تقبل قضاء الله .. أعلم أن أمر المؤمن كله خير .. وأنا مؤمنة فأمري هذا خير .

انصرفت من عنده .. سرت هائمة على وجهي .. لا أدري أين أذهب .. لن أستطع العودة إلي المنزل الآن .. فماذا سأقول لأبي وأمي .. وماذا سأقول لأخي وأختي .

هل اتصل بإحدى صديقاتي المقربات وأخبرها علها تجد لي وسيلة أخبرهم بها ؟ .. أم أتصل بأحمد خطيبي ؟ .. أم ماذا افعل ؟

وبعد تفكير لم أجد أمامي سوى أن أتركها على الله هو من سيلهمني كلمات تخفف عنهم الخبر .

عدت إلي البيت ، ظاهري كأي يوم وباطني غير كل يوم .

سلمت على أبي وأمي وإخوتي .. وبعد تناول العشاء .. جلسنا كعادتنا نتحاور .. استجمعت قواي لأخبرهم .. ودون مقدمات قلت :

_ أخبرني الطبيب اليوم بأنني مريضة .

بهت الجميع وأنصتوا فأكملت :

_ أنا مريضة بسرطان الدم وهي مشيئة الله فليس أمامنا سوى أن نرضى .

كان أبي أول من تحدث .. كان عنيفا في حديثه على غير عادته .. قال :

_ من الجاهل الذي أخبرك بهذا .

أجبته :

_ الطبيب هو من أخبرني .

أكملت أمي الحديث عنه :

_ إنه كاذب وجاهل يريد أن يتاجر بأوجاع الناس .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. أنتِ لست مريضة إنه كاذب إنه كاذب .

أما أخي فاحتضنني وبصوت هادئ قال :

_ لا تقلقي من المؤكد أن هناك خطأ ما .

أختي الوحيدة التي لم تتكلم .. فقط أخذت في البكاء بما يشبه النحيب .

أخبرتهم أنني أُجري فحوصات منذ شهر وأن أكثر من طبيب أكد لي أنه اشتباه في هذا المرض .. وتأكيد الطبيب لي اليوم ما هو إلا تحصيل حاصل .

لاماني أبي وأخذ يردد :

_ كيف تواجهين كل هذا بمفردك، هل مت أنا لتفعلي كذلك .. هل مت لتكتمي عني ذلك لشهر كامل .

أخذت أمي تؤكد أن جميع الأطباء كاذبون .. كلهم كاذبون وأنا واهمة .

غطت الدموع وجه الجميع .. وعندها فقدت كل قوتي على التظاهر بالتماسك .. انهمرت دموعي وأخذت أردد سرا :

_ لا حول ولا قوة إلا بالله .. اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها .

نمت في حضن أمي بناءً على طلبها .. وكأنها رغم تكذيبها لكلام الأطباء .. أيقنت أنني غدا قد لا أكون معها .. عقلها رفض أن يصدق ولكن قلبها صدق .

في اليوم التالي أتصلت بأحمد وأخبرته بما حدث وطلبت منه إنهاء الخطبة .. رفض بشدة وأكد أنه يريد الاستمرار معي مهما كان الوضع .

حاول أن يطمأنني بأن العلاج أصبح سهلا في مثل حالتي وأنها مرحلة وستمر .

صممت على موقفي .. فأنا لا أريد أن أُحمله فوق طاقته وأنا على علم أن المرحلة القادمة ستكون من الصعوبة بمكان وأنه ليس هناك ما يدعوه لتحمل ما سأمر به .. وأنه حتى وإن شفيت .. وهذا احتمال ضعيف .. فلن أعود كما كنت بالتأكيد .

حاولت إقناعه بشتى الطرق ولكني لم أنجح ، فقد صمم على الاستمرار مؤكدا أنه سيتقبل كل الاحتمالات وأنه سيظل بجانبي ولو رغما عني .

كنت ممتنة له حد السماء .. بكيت .. فطمأنني بكلمات كنت في حاجة لسماعها .. كلمات خرجت من قلبه فاخترقت قلبي .. اتفقنا أن نتخطى تلك المحنة معا .. واقترح أن نتمم الزواج قبل بدء رحلة العلاج ليتمكن من البقاء إلى جواري في كل الأوقات .. رفضت في البداية وبعد تصميم منه وافقت .

انتهينا من كل التجهيزات في أقل من أسبوع وتزوجنا .. حيث صممت أمي على أن نقيم معها في بيتنا حتى إنتهاء مراحل العلاج .. بدأت في العلاج بعدها بثلاثة أيام .

كانت رحلة العلاج شاقة .. تحملها معي أحمد وعائلتي .. لم يترك أحمد جلسة ولا زيارة لطبيب إلا وكان معي .. كان يصمم على القيام بكل شئوني بنفسه رغم وجود أمي .. كان يقول .. خيركم خيركم لأهله وأنا أريد أن أكون من خيركم .

كان يشد على يدي .. وحين نرتجف لن ننسى أبدا من شد على أيدينا لنثبت .

زاد حبه في قلبي أضعاف أضعاف .. كنت أحاول تعويضه عما تكبده لأجلي وعن تقصيري الإجباري في حقه في الفترات التي تسعفني فيها عافيتي .. كنت أحاول أن أصنع ذكريات بيننا يتذكرني بها إن أنا مت .

وفي الزيارة الأخيرة للطبيب أخبرني أنني شُفيت تماما .. كدت أطير فرحا .. احتضنني أحمد باكيا ثم سجد سجدة شكر لله .. ابتسم الطبيب ودعا لنا بالسعادة مستأنفا حديثه مؤكدا أن وجود زوجي إلى جواري من أهم العوامل التي ساهمت في شفائي .. فالعامل النفسي يأتي في مقدمة العوامل المساعدة على الشفاء .

نظر لي أحمد نظرة تحمل في طياتها كل حنان الدنيا .. ونظرت له نظرة تحمل كل امتنان الدنيا ممتزج بحبها .. وبعد الاستماع لقائمة تعليمات من الطبيب .. شكرناه وغادرنا .

ظل ممسكا بيدي حتى خرجنا من باب المشفى .. داعيا الله أن يحفظني له .. وفي غمرة فرحتي بشفائي نسيت أن أردد ولك بالمثل .

عبرنا الطريق الأول وهو ناحية الجهة المواجهة للسيارات .. استبدل مكانه ليُصبح في الجهة المواجهة للسيارات في الطريق الثاني .. وقبل أن يُمسك بيدي لنعبر .. وجدته ارتفع عاليا وسقط على الأرض غارقا في دمه .. صرخت عندما صدمته السيارة وصرخت أكثر عندما لم أرى من وجهه شئ غير الدم .

هرج ومرج وصراخ ودماء وأنا بجواره انتحب .. أسرع بعض المارة بإحضار عربة الإسعاف .. ركبت معه .. كان ينظر إليّ ويبتسم ويردد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. حمله رجال الإسعاف إلى الطوارئ .. حضر الطبيب على الفور وفحصه .. كنت أراه بصعوبة .. قلبي كاد يتوقف .. نظر الطبيب إليّ وبصوت حزين قال :

_ البقاء لله .

هكذا قالها بكل بساطة، وليته ما قالها .. ومن بين دموعي استحلفته بالله أن يُحاول .. يُحاول أن يجد لي مخرجا من الفقد .. طلبت منه أن يُحضر طبيبا آخر لعل قلبه يكون قد توقف من شدة الرطمة فيُنعشه .. أكثر من خمسة أطباء أكدوا أن حبيبي قد رحل .

مسحت دموعي وقبلت جبهته وقلت :

_ لا تحزن أنت زوجي في الجنة .. الله ربك .. محمدا رسولك .. والإسلام دينك .

كنت أصنع معه ذكريات ليتذكرني بها بعد موتي، وها أنا الآن من يستأنث بكل ذكرى، يلهث بعدها لساني وقلبي بالدعاء له .. فقد كان خيركم لأهله.

سقوط

كانت عقارب الساعة تدق السادسة مساءً، بينما أدلف إلى مبنى مترو الأنفاق .

طابور طويل انتظرته حتى تمكنت من الحصول على التذكرة .

سرت يمينا ويسارا إلى أن وصلت لرصيف المترو .. كان يحمل فوقه المئات .. كلهم مترقبين لوصول عربة المترو وكلهم على أهبة الاستعداد لبداية مغامرة سيخوضونها بعد قليل داخل عرباته .. أما أنا ولأنني لا أتعامل كثيرا مع مترو الأنفاق فقد أخذت أتأمل الجزء المخصص لسير عربات المترو .. لا أدري هل يسمى قضبانا كما يسمى قضبان القطار أم أن له مسمى آخر .. لم يكن يعنيني اسمه كثيرا، فقط كان يعنيني منظره .

تخيلتني أفقد توازني وأسقط من على الرصيف فتأتي العربة في هذه اللحظة مسرعة فتدهسني على مرأى ومسمع من الواقفين دون أن يتمكن أحدهم من مساعدتي، وسط ضجيج عربات المترو وضجيج صرخات الواقفين .

تساءلت.. كيف سيتمكن من رأني أمامه أُدهس هكذا من استخدام هذا المترو اللعين مرة أخرى ؟

وماذا سيفعل إن لم يتمكن من استخدامه بعد ذلك إن كان هو الوسيلة الوحيدة التي تمكنه إمكانياته المادية أو بعد مسافة الجهة التي يذهب إليها من استخدامها ؟

وكيف سيحيا قائد العربة بعد أن قتلني ؟

وكيف سيخبروا أمي ؟

شردت في هذا المشهد فلم انتبه لقدوم عربة المترو سوى عندما أغلقت أبوابها .. ولم يكن أمامي سوى انتظار العربة التالية .

حرصت على أن أنتبه لوصول العربة التالية .. وعندما وصلت .. هرول الجميع نحوها فامتلأت ولم أتمكن من الركوب .. فوقفت أنتظر العربة التي تليها وأخذت أتأمل الجزء المخصص لسيرها وأتخيل أنني أفقد توازني وأسقط من على الرصيف تدهسني عربات المترو .

أحببت كوني أنثى

عمري قبل العاشرة لا يعني لي الكثير .. مأساتي بدأت في العاشرة .. عندما بدأ جسدي في توديع مرحلة الطفولة ليبدأ مرحلة المراهقة والأنوثة .

كانت طفولتي كباقي الأطفال .. فهي ما بين لعب ودراسة وبعض الأعمال المنزلية التي كانت تكلفني أمي بها .

أمي هي بيت القصيد .. عاشت عمرها في قرية من قرى محافظات مصر .. لم تخرج من بيتها إلا على بيت أبي زوجة في الثامنة عشر من عمرها .. كانت جميلة جمال لا تُخطئه عين .. لم أكن أنا على قدر جمالها، فقد كان جمالي متواضع ولكن جسدي دائما كان أكبر من عمري .. ومن هنا بدأت معاناتي .

عندما بدأت هرمونات الأنوثة تعرف طريقها إلي .. وتحول جسدي من مرحلة الطفولة الي مرحلة الشباب .. بدأت ألحظ نظرات مؤذية من أمي وبعض الكلمات الجارحة والتي تصف بها جسدي كلما انتبهت لتغيير يطرأ عليّ .

أما أبي فقد كان موقفه مختلف .. فقط أراد أن يخبئني عن الجميع وكأنني أصبحت عورة .. أصبح خروجي بحساب وفي أضيق الحدود بأمر منه .. وأصبح ارتدائي للحجاب أمر مفروغ منه ولابد أن يكون حجابا طويلا ساترا لما أمكن من جسدي .

دون مقدمات أصبحت امرأة محظور التعامل معها كطفلة .. كرهت جسدي لدرجة جعلتني أفعل كل ما بوسعي لأخفي علامات الأنوثة تلك .

أصبحت أرتدي ملابس ضيقة جدا أسفل ملابسي علها تُخفي بعض مظاهر الجريمة .. جريمة أنني أصبحت أنثى بالغة .. تلك الجريمة لم يكن لي يد في اقترافها ولكن رغما عني وجدت نفسي المتهمة الوحيدة فيها .

أصبحت أمي تغار من أنوثتي .. وكلما زادت غيرتها زادت تعليقاتها الجارحة لتُفقدني ثقتي بنفسي كفتاة .

بقينا على هذا الحال .. أمي تغار مني وأبي يغار عليّ، وأنا ازداد كرها لجسدي وأحاول جاهدة أن أقتل علامات الأنوثة فيه .. إلي أن تزوجت .

تزوجت بشاب رائع تتمناه الكثيرات .. وللأسف بدأت معاناتي منذ أول يوم زواج .. كلما حاول أن يقترب مني أجد نفسي في شدة الخجل .. أرفض بشدة .. وعندما استسلم أشعر بأنني ازداد كرها لجسدي .. لا أجد أمامي سوى أن أرتدي ملابس فضفاضة طويلة حتي لا يرى شئ مني بعدها .. اعتقد هو أن خجلي هذا سينتهي عندما أعتاده .. ولكن هذا لم يحدث .

ثلاث سنوات .. وهو في نفس المعاناة .. حاول جاهدا أن يُنحي ذلك جانبا وأن يتعامل معي بمودة ورحمة .. وقد كان حقا نعم الزوج .. لم يجرحني مرة بكلمة .. كان دائما دمث الخلق .. ولكنه كان يخبرني دائما أن شئ هام ينقصه .. طلب مني أن أتحدث مع أمي علها تستطيع مساعدتي في حل مشكلة خجلي هذا ولكنني رفضت .. فلم يجد أمامه سوي ان يرتضي ولكنه أصبح شديد العصبية معي ومع الجميع .

أصبحت أم لطفل .. حمدت الله كثيرا أنه ولد .. فقد خفت أن ألد فتاة تعاني نفس معاناتي . لاحظت ابتعاد زوجي شيئا فشئ عني فتجرأت وأخبرت إحدى صديقاتي بمشكلتي .. والتي نصحتني أن أذهب لطبيبه نفسية .

بعد تردد وافقت على الذهاب .. صحبتني صديقتي إلى إحدي العيادات .. وعندما بدأت في الحديث مع الطبيبة .. أخذت في البكاء .. أخبرتها بكل ما لم أخبر به أحدا من قبل .. ونصحتني بما لم ينصحني به أحدا من قبل.

استمرت جلساتنا حوالي ستة أشهر .. شعرت خلالها بتحسن كبير .

أصبحت أرتدي بعض الملابس المنزلية القصيرة نوعا ما أمام زوجي .. ولم تعد نظراته لي ترهقني كما الماضي .. علمتني الطبيبة أن أحب جسدي وأن أخفي أنوثتي فقط عن الأجانب .. أوضحت لي أن أفعال أبي كانت خوف بشكل خاطئ، فقد كان عليه أن يحببني في الحجاب وألا يفرضه علي فجأة بهذه الطريقة .. كان عليه أن يتدرج بي إلي أن أصل للحجاب الملزم شرعا .

وطلبت مني أن ألتمس العذر لأمي فهي للأسف تعاني نفسيا من قهر ما عانته في حياتها أشعرها أن جمالها وأنوثتها هما رأس مالها، وأن غيرتها تلك كانت بسبب خوفها من منافستي لها في رأس مالها هذا .. فلم تجد طريقة لتطمئن نفسها أنها باقية على عرش الأنوثة سوي في التقليل من أنوثتي أنا .

في الجلسة الأخيرة عدت إلي بيتي وكلي رغبة في زوجي .

انتقيت رداء منزلي ابيض اللون رقيق وفي منتهي الروعة .. تزينت كما لو كنت عروسا يوم عرسها .. انتظرت زوجي إلي أن عاد من عمله .. احتضنته قائلة:

- أحبك اليوم أكثر من كل يوم .. وفقط أريدك أن تراني كما لم تراني من قبل .

يبدو أنني شفيت وأحببت اليوم كوني أنثي.

القاتل يُقتل

همست صديقه في أذني .. أنها تحبه .. أنها ستموت إن هو تركها .

كان زميلها في العمل .. كان يصب عليها اهتماما خاصا وكانت ترى هي فيه وجه الرجل الذى صاحبها منذ زمن في أحلامها .. نفس الطباع، نفس الرجولة، ونفس الرائحة .

لم تكترث به في بداية تعارفهما .. ولكنه أجبرها على الاكتراث بلطف معاملته وبمواقفه الآسرة.

قاومته بداية .. رفضت أن تنساق وراء قلبها .. ولكنها لم تستطع الاستمرار في المقاومة .. رمت كل وسائل دفاعها وأتته صاغرة .

لم يخبرها يوما صراحة بحبه لها .. ولكنه قالها آلاف المرات بأفعاله .. ولم تخبره هي بحقيقة مشاعرها تجاهه ولكن عيناها أخبرت الجميع وليس هو فقط .

استمرت علاقتهما لمدة عام .. يتصل بها في غير أوقات العمل .. يطمئن عليها ويدعمها .. إلى أن جاء يوم قتلها .

أخبرها يومها أنه سيتزوج من إحدى قريباته .. لم تستوعب في البداية شيئا مما قال .. ولكنها استوعبت في النهاية مرغمة .

كان صوته مرتجفا وكان صوتها ثابتا .. وما أقساه الثبات وداخلك يرتجف وينتحب .

تمنت له السعادة وهنأته واستمرت في الحديث حتى أنهى هو المكالمة .

لم تبكِ يومها ولم تثرثر عنه لإحدى صديقاتها .. ابتلعت الخبر وكأنها ابتلعت سماً أخرسها .. كُسر قلبها .. وطُحنت روحها ولم تتأوه .

نامت واستيقظت لتبدأ في النحيب .. كأنها أفاقت للتو من صدمتها .. بكت بكل ما فيها من قوة .. وصرخت بكل ما أوتيت من عزم .. لعنت نفسها ولعنته وكرهت نفسها وظنت أنها كرهته .. ابتعدت عنه وانتصرت على ضعفها .. تألمت كثيرا في بعده ولكنها فعلتها .

عادت لممارسة حياتها الطبيعية وبدأت تعتاد غيابه .. اعتادت أن تبقى بلاه وبلا صوته .. وكانت المفاجأة .. يوم اتصاله بها بعد عودته من إجازة زواجه .. أتاها مشتاقا ملتاعا نادما .. أخبرها أنه كان يحصي الليالي التي سيعود فيها ليسمع صوتها .. وأخبرها أن زوجته رائعة ولكنه لا يشعر بها .. تزوجها لكونها مناسبة .. فاكتشف أن التناسب لا يمكن حسابه بالورقة والقلم .. فهناك حسابات أخرى لم يضعها في حسبانه ولكنها كشرت عن أنيابها ولم تعطه فرصه حتى أن يستمتع بكونه عريسا .

استجمعت قواها وأخبرته أن عليه المحاولة .. فالوقت ما زال مبكرا للحكم على التجربة .. وأن عليه أن يعطي لنفسه الفرصة كي يكتشف زوجته ويبحث عن مواطن الجمال والحب فيها .. وعدها بالمحاولة .

قررت أن تبتعد من جديد .. قابلها في العمل .. وبدأ في التقرب منها من جديد .. قاومته إلى أن هزمتها المقاومة .. سمحت له بالتقرب من جديد .. اشعل كل مشاعرها من جديد .. واعترف لها بحبه .. اعترف لها أنه كان يريدها ولكنه كان يخشاها .. كان يخشى جموحها .. يخشى استقلالها الفكري .. أراد من تطيعه دون نقاش .. من تصمت حين يريد وتتحدث حين يريد .. كان أناني .. أراد كل شئ .. امرأة تسقي روحه .. وامرأة تنتظره في المنزل حين يعود .. امرأة تداعب عقله .. وامرأة تجعله أبا .

بكل أنانية وقسوة ترك خلفه امرأتين محطمتين .. إحداهما حطمها الحب والأخرى حطمتها الخيانة .

اعترف هو أنه لو عادت به الأيام ما كان سيتركها ويتزوج غيرها .. واعترفت هي أنها إن عاد بها الزمن لن ترضى به .. فالخائن يخون حتى من يحب .

تركته وابتعدت وأخبرت نفسها أنها كما فعلتها مرة تستطيع أن تفعلها ثانية .. فازت هذه المرة ولم تنتصر فقط .. ابتعدت ولم تعد .. وظل هو ينعي ذكراها ويُمني نفسه بيوم من أيامها .. ولكن هيهات .. فالقاتل يُقتل ولو بعد حين.

تمت بحمد الله